وحدة النسق في السورة القرآنية

فوائدها وطرق دراستها

رشيد الحمداوي

* من مواليد الدار البيضاء بالمغرب عام ١٣٩٧هـ الموافق ١٩٧٧م.
* نال الإجازة من قسم الدراسات الإسلامية بجامعة القاضي عياض بمراكش،كما نال دبلوم الدراسات العليا المعمقة (الماجستير) من دار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية العليا في " مؤلفات التفسير والحديث بالغرب الإسلامي".
* له عدة بحوث، منها: "المتشابه اللفظي في القرآن ومسالك توجيهه عند ابن الزبير الغرناطي من إصدار مكتبة أولاد الشيخ بمصر سنة ٢٠٠٣م".
و "قواعد الترجيح في التفسير عند ابن جزي الأندلسي".

الملخص

يتناول هذا البحث خصيصة من خصائص السور القرآنية وهي وحدة النسق، ونعني بها تماسك بناء السورة القرآنية واتساق معانيها المتشعبة التي تتضمنها ضمن غرض محوري واحد دون تنافر أو تفكك.

والدلائل على تميز سور القرآن بهذه السمة متوافرة بشكل يجعلها وجهًا من أوجه الإعجاز. وقد وفق العلماء المتقدمون في استجلاء هذه السمة ودراستها في علمين من علوم القرآن : الأول علم المناسبات الذي عني بأوجه الارتباط بين الآي والسور، والثاني علم مقاصد السور الذي أبدعه برهان الدين البقاعي، وبفضله تنبه بعض المفسرين - لا سيما من المعاصرين- إلى أن لكل سورة غرضًا محوريًا تدور عليه جميع آياتها، فعنوا ببيانها في تفاسيرهم.

ومن خلال تتبع بعض التفاسير القرآنية تبينت بضعة فوائد لملاحظة وحدة نسق السورة في تفسير أجزائها، منها تيسير التفسير، وتسديد فهم بعض ما أشكل على المفسرين، وترجيح ما اختلفوا فيه، واستجلاء أسرار تكرار القصص واختلاف الآيات المتشابهة اللفظ. بالإضافة إلى الوقوف على الأصح من المناسبات بين الآي واستكناه بعض الحكم التربوية واللطائف المعنوية المكنونة فيها. وهذه الفوائد تنبئ عن أهمية دراسة نسق السور القرآنية وجعله مرتكزًا في التفسير السديد لكتاب الله المجيد .وقد خلصت إلى بيان طرق استجلاء الغرض المحوري للسورة، وحددتها في أربعة مسالك وهي: تدبر فواتيح السورة وخواتيمها، وتقسيمها إلى مقاطع حسب مضمونها، ومعرفة زمن نزولها، والاستئناس بأسمائها المأثورة. ولا ريب أن الالتفات إلى نسق السورة القرآنية واستحضارها في التفسير سيثمر دراسات قرآنية جديرة بالأخذ بيد المسلم نحو فهم مراد الله تعالى وملامسة هداياته في كلامه.

المقدمة

القرآن الكريم هو كتاب الله الحكيم ،وآيته الظاهرة ومعجزته الخالدة على مر العصور، وقد نزله الله تعالى على قلب رسوله صلى الله عليه وسلم – على خلاف الكتب السماوية السابقة – مُنجّماً حسب الوقائع والأحداث على مدى ثلاث وعشرين سنة،وكان النبي صلى الله عليه وسلم كلما نزلت عليه آيات أمر أصحابه بكتابتها في مواضعَ يُعيّنها حسبما أوقفه عليه جبريل عليه السلام دون مراعاة لترتيب النزول، وقد تألف مما جمع على هذا النحو سُوَر مؤتلفة المباني متسقة المعاني، لا تكاد تحس بأدنى خلل في بنائها أو تنافر بين أجزائها. وبهذه السور وقع التحدي، وصحت المعجزة كما في قوله تعالى:﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة:٢٢].

وقد اهتم العلماء منذ وقت مبكر بدراسة أسرار نظم آي القرآن الكريم تحت مسمى الإعجاز بالنظم تارة، وبعنوان علم المناسبات تارة أخرى، إلا أن تفسير القرآن ظل بمنأى عن بيان وحدة نسق السورة والتحام موضوعاتها واتساق أجزائها بحيث تترامى في جملتها إلى غرض واحد،وبقيت المناسبات بين الآيات والسور لونًا من ألوان النكت التفسيرية التي تظهر بعض أسرار ترتيب القرآن المعجز دون أن ترقى إلى جعل السورة بنية متماسكة لها مقصود واحد. ومع أن بعض المفسرين تنبهوا إلى أن لكل سورة غرضًا محوريًا تدور عليه جميع آياتها فإن أكثرهم لم يستصحبوا هذا الملحظ في تفسير أجزائها وبيان ارتباط معانيها.

وقد تزايد الاهتمام بالتناسق الموضوعي في القرآن تسديدًا لعلم التفسير ، وتجديداً لطرائق التعامل مع القرآن الكريم وتدبر آياته وسوره.

وقد اخترت أن أستعمل للدلالة على هذه الخصيصة القرآنية مصطلح وحدة

النسق(١)، وأعني بها: التحام موضوعات السورة القرآنية وتماسك بنائها واتساق معانيها لخدمة مقصود واحد. وأعني بالنسق(٢) بناء السورة الذي يتسم بالتناسق بين أجزائه، والترابط المعنوي بين آياته. وقد يعبر عنه بعض الباحثين بسياق السورة العام، إلا أن كلمة " النسق " – في رأيي – أدل على التكامل والتناسب من الناحيتين المعنوية والبيانية، وأشمل لأجزاء السورة، بخلاف السياق الذي يراد به سوابق الآية ولواحقها. كما أن وحدة النسق أدل على إحكام بناء السورة من التناسق الموضوعي الذي يدل على تناسب مواضيعها فحسب.

وقد عبر كثير من الكاتبين عن هذا المفهوم بالوحدة الموضوعية(٣)، ولكنني آثرت التعبير بوحدة النسق دفعا لما قد يُتَوهّم من أن إضافة الوحدة الموضوعية إلى السورة يقضي بأن لها موضوعًا واحدًا(٤)، فالحقيقة أن معظم السور القرآنية متعددة المواضيع، ولكنها مع تعددها متحدة في هدف عام تتجه إليه، ملتحمة في نسيج واحد دون تنافر أو تفكك؛ وما يعبر عنه بعض الكاتبين بأنه موضوع السورة إنما هو هدفها المحوري الذي تدور عليه جميع موضوعاتها. وهو ما سأتناوله في هذا البحث، بيانًا لجهود العلماء من المتقدمين والمعاصرين فيه، وإيضاحًا لطرائق استجلائها وفوائد ملاحظتها في التفسير .

---

(١) وقد سبقني إلى هذا المصطلح د أحمد أبو زيد في كتابه " التناسب البياني في القرآن " .منشورات كلية الآداب بالرباط ١٩٩٢م .

(٢) هذه الكلمة وردت في نص لأبي إسحاق الشاطبي حيث يقول عن سورة المؤمنون:" إلا أنه غلب على نسقها ذكر الكفار للنبوة"الموافقات (ج ٣ / ٣١٢)وفي كلام محمد عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم (١٥٦).

(٣) وهذه التسمية سائغة اعتبارًا بكون المقصود بها هي وحدة موضوعات السورة ، ولكنني اخترت استعمال "وحدة النسق "، ولا مشاحة في الاصطلاح.

(٤) وممن يوحي كلامه بهذا المعنى الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في مثل قوله "حول وحدة موضوع السورة القرآنية" (قواعد التدبر الأمثل ٤٢) وفي تعبيره تسامح،وإلا فإن معظم السور متعددة الموضوعات.

المبحث الأول

دلائل وحدة النسق القرآني

من خصائص القرآن الكريم أنه لم يُفرِد كل سورة من سوره لموضوع معين في الغالب(١)، بل كان يجمع في السورة الواحدة مواضيع متنوعة وأغراضًا مختلفة من عقائد وأحكام ومواعظ وقصص وأمثال وجدل وحكم ويتنقل بينها من غير فصل. وهو بذلك مباين لمناهج التأليف البشرية التي تعتمد التبويب والترتيب،وهذا ما جعل المغرضين من المستشرقين كدوزي وبلاشير وغيرهم يطعنون في القرآن ويرون أن آياته لا يجمعها سياق وليس بينها وفاق ! بل في سرده للموضوعات عشوائية واضطراب، وزعموا أن ذلك يعزى إلى البدائية والبساطة في طريقة التأليف مما يدل على أنه فكر بشري لا وحي إلهي!(٢)

ومن ثم أوصوا بإعادة الحياة للمصحف - في زعمهم - وذلك بترتيب القرآن وسوره وفق السياق التاريخي المعقول بناء على أسباب النزول،تيسيرًا للقارئ الغربي ومساعدة له على فهم القرآن،وسار على ذلك بعض مترجمي المصحف؛ وفي ذلك يقول بلاشير(٣)معلقًا على اقتراح

---

(١) واحترزت بقولي " الغالب" لاستثناء قصار السور فإن أكثرها يتناول موضوعًا واحدًا .

(٢) انظر آراء المستشرقين حول القرآن الكريم، عمر إبراهيم رضوان (٢ /٥٧٩) دار طيبة، ط ١، ١٩٩٣م.

(٣) مستشرق فرنسي : من أشهر كتبه " تاريخ الأدب العربي "، و"دراسة حول القرآن " وله مقالات عديدة في أشهر مجالات الاستشراق . تراجع ترجمته في مجلة الوعي الإسلامي ع٢٨٨ - ذو الحجة ١٤٠٨ هـ -ص ١٥ ويراجع " المستشرقون" للأستاذ نجيب العقيقي (١ /٣٠٩ - ٣١٢)ط دار المعارف.

نولدكه(١) بإعادة ترتيب السورة : " ويتوصل القارئ الغربي إذ ذاك بمنطق لا تكلف فيه إلى الاقتناع بأن الحياة قد أعيدت للمصحف، فما عاد يظهر على شكل متتابع مصطنع وغير منتظم للنصوص، بل على شكل سلسلة من الموضوعات، عالجها محمد خلال عشرين سنة وفقًا لمقتضيات دعوته " (٢) .

والحقيقة أن التاليَ لأي سورة من مطلعها إلى ختامها لا يشعر بنشاز أو اضطراب، ولا يرى انقطاعًا أو انفصالاً، بل يخلص من معنى إلى آخر خلوصًا طبيعيًا لا عسر فيه ولا اقتسار، وتنطوي هذه الخصيصة في تمازج المعاني والأغراض في سور القرآن على عدة حِكَم كما سيأتي، من أظهرها أنه يكون سببًا لطرد سآمة القارئ والسامع وتجديد نشاطهما، مما يجعل الإنسان لا يمل من ترداد القرآن الكريم وسماعه.

و عند إمعاننا للنظر في كتاب الله المجيد نجد الدلائل متضافرة على أن آياتِ القرآن وكَلِمَه محكمة البنيان متناسقة الأركان، ومن هذه الدلائل :

١- إن القرآن ليس كلام أحد من البشر، وإنما هو كلام الحكيم العليم سبحانه، وهو كلام من له الكمال المطلق، فله الأسماء الحسنى والصفات العلى ، ومن ثم لا يمكن أن ترى ثغرة في بنائه أو تنافرًا في أجزائه أو تفككًا في معانيه، فكمال حكمته تعالى وسعة علمه سبحانه تقتضي إيقاع المباني والمعاني

---

(١) مستشرق ألماني : حصل على الدكتوراه في علوم القرآن وكان عنوان رسالته " أصل وتركيب سور القرآن " وقد أعاد النظر فيها وفي توثيق مراجعها ونشرها بعنوان " تاريخ النص القرآني " وله مؤلفات أخرى . تراجع ترجمته كاملة في " المستشرقون " (٢ / ٣٧٩- ٣٨٣).

(٢) "القرآن : نزوله ، وتدوينه وترجمته وتأثيره " لبلاشير- الفصل الأول (ص ٢٣- ٤٤) ط دار الكتاب اللبناني /بيروت ط ١ ١٩٧٤م .

على أبدع نظام، وقد وصف تعالى كتابه بالإحكام فقال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]، وقال تعالى منبهًا على كمال علمه وحكمته: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦].

وكثيرًا ما يستفتح السور القرآنية بوصف القرآن بالإحكام والتنويه بعلو مصدره وعظمة المتكلم به سبحانه تنبيهًا للقارئ على عظم قدر ما يتلقاه وسمو مضمونه، وطردًا لكل الوساوس التي تهجس في نفس السامع من جهة تعدد موضوعاته وتشعب معانيه أو غرابة أحكامه . ومن تأمل مطالع معظم سور القرآن التي تتسم بالطول نسبيًا وجد هذا الأمر مطردًا على نحو يجعلنا نجزم بوجود مقصود عظيم وراء ذلك، وكلما كانت السورة مجالاً فسيحًا لتعدد موضوعاتها كلما كان التأكيد على عظمة القرآن أشد، والتنبيه على إحكامه وإعجازه أقوى .

ولننظر على سبيل المثال سورة البقرة، فإنها أطول سور القرآن وأكثرها تشعبًا في مضامينها، ولذلك افتتحت بنفي الريب الذي قد يتردد في الصدور من القرآن، فقال تعالى مشيرًا إلى علو قدره: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢] كما افتتح سورة الأعراف – وهي من السبع الطوال – بقوله سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:٢] وفي مطلع آل عمران بين الله إنزال القرآن بالحق وموافقته للكتب السابقة – لتوجه السورة بالخطاب في شطرٍ منها إلى أهل الكتاب – فقال سبحانه: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ (٣) مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران:٣، ٤].

ونجد سوراً أخرى افتتحت بالتنبيه على حكمة الكتاب: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس :٢، ولقمان:٢]، أو وصف القرآن بالحكمة كقوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾[يس : ٢-٥].

وفي سور أخرى يقرن تعالى إنزال القرآن بصفاته العليّة : ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر :١ والأحقاف:٢ والجاثية :٢]، ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[غافر:٢]. وفي سور أخرى يقرن إنزال القرآن بنفي الريب والعوج واتسامه بالحق والاستقامة: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة:٢]. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد:١]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف:١].

وكما وصف آيات القرآن بالإحكام وصف السورة بذلك فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد:٢٠].

ولو شاء الله تعالى لأنزل القرآن الكريم دون تقطيعه إلى سور، أو أنزل كل سورة منه في موضوع واحد، ولكنه عز وجل جعل كتابه سورًا غير متماثلة، منها الطويل والقصير والمتوسط بينهما، ومنها ما هو طويل الآيات، ومنها ما هو قصير الفواصل ، ومنها ما يركز على مسائل الإيمان، ومنها ما يركز على الأحكام؛ كل ذلك وفق بالغ حكمته تعالى .

٢- تسمية المجموعة من الآيات القرآنية بالسورة، فقد قال تعالى في مطلع سورة النور: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:١] وهذا الاسم يحمل في طواياه معنى الإحاطة وتوحيد الأجزاء المتعددة، فتصاريف مادة " س و ر" تدور على هذا المعنى كالسور الذي يحيط بأبنية المدينة ويجمع بيوتها، والسوار الذي يحيط بالمعصم... وفي السور وحدة واستقلال، وفي السوار زينة وجمال؛ والعلماء يُعرّفون السورة القرآنية بأنها " طائفة مستقلة من آيات القرآن ذاتُ مطلع ومقطع "(١)، ومن ثم فالسورة تحيط بطائفة من الآيات ذات المعاني المتنوعة وتجمعها برباط وثيق . ومطلع السورة وختامها بمنزلة الحدود التي تحف بآياتها فتجعل لها صبغة الاستقلال والتميز عن غيرها من السور الأخرى، وما تضمه السورة بين تضاعيفها من مواضيع مرصوص متكاملٌ كَتراصّ لَبنات البناء الواحد، متساوٍ في الجودة والحسن كالسوار الذي لا يدرى أين طرفاه، فتكتسي من اجتماعها على ذلك النحو رونقًا وجمالاً.

وتقسيم القرآن إلى سور مختلفة أحد مظاهر تيسير القرآن للذكر كما في قوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧]. فالسورة الواحدة من القرآن كافية للتذكير لمن أراد أن يتذكر، لتنوع موضوعاتها وتعدد الجوانب التي تتناولها، ومن ثم فما من مسلم أقبل على كتاب الله إلا ونال حظه منه تلاوة وحفظًا، على قدر ما يسعفه وقته واستعداده وذاكرته ، وأخذ نصيبه من تذكر المعاني الرئيسة مهما كانت منزلته في المعرفة والفهم.

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن لعبد العظيم الزرقاني(١ / ٣٥٠).

٣- وقوع التحدي بالسورة الواحدة من سور القرآن، فقد قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:٢٣]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس:٣٨]، وهذا التحدي دليل على أن بناء السورة وتأليف آياتها على هذا النحو العجيب أمر معجز للأولين والآخرين، ولا يمكن أن يصح الإعجاز بالسورة القرآنية إلا إذا كانت متآزرة المعاني متسقة المباني معجزة في ترتيبها وبنائها مع تنوع مضامينها . وقد دعا الله الخلق إلى تدبر القرآن والتأمل فيه، وعلى رأسهم العرب الذين كانوا فرسان البلاغة وأرباب البيان، ومع علمهم بعيوب الكلام و قوادح بلاغته شعرا ونثرا فإنهم لم يعيبوا القرآن بأنه ضعيف الترابط أو مهلهل النسج أو متنافر الأجزاء، كما يقول المستشرقون الذين يفتقرون إلى الذوق البلاغي .

ونظام السور القرآنية نظام متميز، فالكتب التي يؤلفها البشر تُقسَّم إلى أبواب وفصول ومباحث حسب جزئيات الموضوع التي تتناوله، وكل مبحث يتناول واحدة منها دون أن يخلطها بغيرها، أما السورة القرآنية فتجمع في كثير من الأحيان مواضيع متعددة، وهي على اختلافها متآلفة في نسيجها، وهنا يكمن الإعجاز . ثم إننا لو عمدنا إلى القرآن وجمعنا طائفة من الآيات متحدة الموضوع من سور مختلفة وجعلناها سورة واحدة لوجدناها متنافرة الأسلوب مضطربة التركيب، ولو أخذنا من سورة معينة آياتٍ ذات موضوع واحد كالآيات التي تتحدث عن قصة خلق آدم في سورة البقرة مثلاً [من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٨] وجعلناها سورة قصيرة لوجدنا أن القصة قد خفتت إشعاعاتها

وانكسفت أنوارها. ولكن الله تعالى أراد أن تكون سور القرآن على ذلك النحو، وترك استخراج المواضيع ذات الصبغة الواحدة للجهد البشري تصنيفًا وتفسيرًا واستنباطًا على مدى العصور، بما يلبي حاجات البشرية ويوفي بمطالبها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٤- ترتيب آيات سور القرآن الكريم توقيف من النبي صلى الله عليه وسلم مأخوذ من الوحي، فقد تنزل القرآن على مدى ثلاث وعشرين سنة، و لم تكن تنزل آيات السورة مجتمعة في آن واحد، ولا متوالية في أوقات متقاربة، وإنما كانت تنزل متفرقة حسب الدواعي والأحداث، ويكفينا للتمثيل على ذلك أن سورة العلق نزل مطلعها﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ إلى قوله تعالى :﴿ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ في بدء الوحي، ونزل شطرها الأخير في وقت لاحق بعد نزول آيات من سورة المدثر وتتابع نزول الوحي عليه⁽¹⁾.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا اكتمل إنزال السورة دعا كتبة الوحي ليكتبوها على وفق ترتيبها الذي أخبره به جبريل ، فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال له : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه من السور ذوات العدد، فكان إذا أنزل عليه الشيء دعا بعض من يكتب له فيقول: « **ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا** »، وإذا أنزلت عليه الآيات قال: «**ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا** »

---

(١) انظر سبب نزول مطلع سورة المدثر في لباب النقول بهامش تفسير الجلالين (٨٠٥) وسبب نزول الآيات الأخيرة من سورة العلق (٨٢٨) .

وإذا أنزلت عليه الآية قال : « **ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا** »(١). فكأنه عليه الصلاة والسلام يرشدهم – بوحي من الله – إلى المواضع التي تلائم الآية التي أنزلت عليه، وتتصل بها بروابط معنوية معينة.

وما دام الترتيب في المصحف على غير ترتيب النزول فهو ترتيب مستند إلى ما في اللوح المحفوظ الذي استكَنَّ الله فيه كتابه قبل إنزاله على قلب رسوله مصداقا لقوله تعالى :﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾ [البروج:٢٢] وهذا الأمر ليس منحصرًا في ترتيب الآيات، بل يشمل ترتيب السور، فهو كذلك وفق ترتيبها في اللوح المحفوظ، ولذلك قال ولي الدين المَلَّوي : « قد وهم من قال :لا تطلب للآية الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنها على حساب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيبًا وتأصيلاً، فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف؛ وحافظ القرآن العظيم لو استُفتِيَ في أحكام متعددة أو ناظر فيها أو أملاها لَذَكر آية كل حكم على ما سُئِل، وإذا رجع إلى التلاوة لم يتل كما أفتى، ولا كما نزل مفرقًا، بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة ... »(٢). ولا ريب أن وضع الآية لا يكون إلا في الموضع الذي يناسبها والذي علم الله تعالى أنه أوفق بها وأوقع في تحقيق مقاصدها.

و لو تأملنا سورة البقرة وقد نزلت ترتيلاً في ما يقارب عشر سنوات ؛

---

(١) مسند الإمام أحمد (١ / ١١١ رقم ٥٠١) . الترمذي (كتاب التفسير باب ومن سورة التوبة رقم ٣١٨٧) وصححه الحاكم (٢ / ٢٣٠) .

(٢) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي(١/ ٣٧)، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي(٢ / ١٠٨) .

لوجدناها مع ذلك معجزة ظاهرة، متناسقة الألوان، متوافقة الأشكال، تأخذ ألباب الناظرين بجمالها وروعتها، وتوحي للمتوسمين بإشاراتها ودلالاتها . ومن مظاهر الإعجاز التي نلمحها فيها أن اختلاف أسباب نزول آياتها وتباعد أوقات تنزيلها كان أدعى إلى تفكك أجزائها وتداعي بنائها، ومع ذلك تجدها متصلة الوشائج، متينة النسج، متنوعة المشاهد، متحدة المقاصد، متآلفة البدايات والنهايات :﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء:٨٣].

٥- كراهة السلف للتنقل بين السور دون إكمال واحدة منها، والخلط في التلاوة بين آيات من سور متعددة، ولعل أساس ذلك هو ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم « أنه مر ليلة بأبي بكر وعمر وبلال رضي الله عنهم وكلٌّ منهم يقرأ القرآن، فلما أصبح قال لبلال : **مررت بك وأنت تقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة !** فقال : أخلط الطيّب بالطيّب فقال: **اقرأ السورة على وجهها – أو قال– على نحوها** »(١).

فقد نحى بلال رضي الله عنه – حسب هذه الرواية – في تلاوته للقرآن منحى خاصًا، إذ كان ينتخب من كل سورة آيات الرجاء والرحمة وما يتضمن وصفَ الجنة والنعيم(٢) وما أشبه ذلك ويضمه إلى نظائره في سورة أخرى؛ فأمره النبي أن يقرأ السورة على الوجه الذي أنزلت عليه بتنوع موضوعاتها وتعدد أغراضها وتشعب معانيها، تحقيقا للمقصد الإلهي من

---

(١) مصنف عبد الرزاق (٢ / ٤٩٥ رقم ٤٢٠٩) ومصنف ابن أبي شيبة (٦ / ١٥١ رقم ٣٠٢٥٩)، وفضائل القرآن لأبي عبيد (١ / ٣٦٠ رقم ٢٩٨)، وسنن البيهقي الكبرى (٣ / ١١).

(٢) بهذا شرح أبو عبيد القاسم بن سلام أثر بلال كما نقله عنه الزركشي في البرهان (١ / ٥٥٣).

التسْوِير، وفي رواية أخرى أن النبي قال له: «**إذا قرأت السورة فأنفذها** »(١) أي أكملها، وهذا الأمر النبوي يحمل في ثناياه نكتة لطيفة، وهي أن السورة وحدة متماسكة متكاملة لا يغني بعضها عن سائرها، ومن ثَم لا يحصل الانتفاع بها واستخراج بركاتها وهداياتها إلا باستيفائها تلاوةً وتدبراً، فآياتها حلقات مترابطة آخذٌ بعضُها بأعناق بعض، ولو ظهرت باديَ الرأيِ مختلفة المقاصد متنائية الأغراض .

ولعل من أبرز حِكَم الامتزاج بين تلك المعاني المختلفة، أن كتاب الله تعالى شفاء لصدور الخَلقِ ، وليتناسب الشفاءُ مع مكونات النفوس البشرية المتداخلة وأحوالها المتعددة، لا بد أن يوضع بميزان دقيق ليتمكن من تتبع مسارب النفوس ومعالجة دخائلها المختلفة، ومن ثم كان من اللازم أن يقرن الترغيب بالترهيب، والبشارة بالإنذار، ويشفع ذكر الدنيا بنبأ الآخرة، ويؤكد ما يقرره بالدلائل التي تشهد عليه، ويمهد للأحكام التشريعية بأساس إيماني تحمل النفوس على الالتزام بها، بحيث يبادر النفوس بما تحتاج إليه عند تلقيها للوحي، ويجيب العقول عما تبحث عنه، ويغذي العواطف ويمتع الأرواح بما تهفو إليه؛ كل ذلك بشكل متوازن متناسق، شأنه شأن الدواء الذي يركبه الصيدلي لعلاج مرض معين(٢)، فيضعه بنسب مضبوطة بدقة، كي يتحقق الشفاء التام دون أضرار أو مخاطر، فإذا تغير مقدار واحد من المواد التي تركب منها، أو زالت مادة من تلك

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (١ / ٣٦٠ رقم ٢٩٩).

(٢) نقل الزركشي عن أبي عبيد قوله : " فأمره أن يقرأ السورة على نحوها كما جاءت ممتزجة كما أنزل الله تعالى؛ فإنه أعلم بدواء العبد وحاجتهم، ولو شاء لصنفها أصنافًا، كل صنف على حدة، ولكنه مزجها لتصل القلوب بنظام الإيمان " البرهان (١ / ٥٥٣).

المواد بالجملة، لم يؤد ذلك الدواء مفعوله، بل قد يستحيل سمًّا قاتلاً ، ولكن القرآن يتميز بكونه شفاءً خالصاً، إلا أن الانتفاع بآثاره المباركة استشفاءً واستهداءً لا يكون إلا بأخذه على الوجه الذي ألّفه الله سبحانه عليه، وبقدر ما يجتزئ المَرْء ببعضه دون بعض ينقص حظه من مِنَح القرآن وهِباته، وبقدر ما يتعامل معه على هيئته الممتزجة ينال خيراته وبركاته، ولا ريب أن سر شفاء القرآن هو في ترتيبه على ذلك النحو المعجز، ومَثَلُه في ذلك كمَثَل العسل؛ فإن الله تعالى شهد له بكونه شفاءً للناس، وعلة ذلك أن النحل تأكل من نباتات مختلفة وأزهار متنوعة، وفي الآية التي يخبر الله فيها عن وحيه للنحل قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النحل: ٦٩]، وبقدر تنوع طعامها تكون جودة عسلها، وقوة أثره الشفائيّ .

ولكن كلام الله تعالى يعلو على غيره، ويمتاز بأنه كلّه شفاء وهدى ورحمة ونور، فما من سورة إلا وهي في نفسها شفاء لعلة من علل النفوس، وهداية إلى سبيل من سبل الخير، ورحمة للإنسان من الوقوع في مَهْواة من مهاوي الضلال، ونور يزيح عنه ظلمة من الظلمات .

فالقرآن يروم من قارئه أن ينال من قراءة كل سورة من سوره نصيباً وافراً من الهدايات التي بثها فيها، ويخرج من تدبره لأسلوبها ومعانيها وفواصلها ومعايشة قصصها وصورها وحواراتها برسالة السورة التي تحملها إليه.

وقد تأملت في سنة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم فوجدته غالباً يتلو في صلاته سوراً كاملة، ولا يقطعها أو يكتفي بأجزاء منها إلا

أحيانا(١)، وكان تحزيب السلف للقرآن ينتهي عند آخر السور، ولا يتوقف عند أواسطها أو أواخرها .

ولعلّ حكمة ذلك هو أن السورة - كالآية الواحدة - ينبغي للوارد على حياضها ليستسقي من معينها بالمكيال الأوفى أن يتم تلاوتها إذا أراد أن يستمنحها هداها كله، لا أن يتوقف عند جزء منها؛ لأنه بذلك يكون قد قطَّع أوصالها؛ فإذا استأنف قراءتها بعد ذلك لم يتلق الرسالة القرآنية الكلية في السورة، وإنما أخذ بعض معانيها فحسب .

وما ورد في السنة من استحباب تلاوة آيات مخصوصة في مواضع معينة - كآية الكرسي وخواتيم البقرة ونحوها - فإنها تؤخذ كذلك مجتزأة من السورة التي وردت فيها لكونها تحمل معنى مستقلاً يناسب المقام الذي تقال فيه من أجل الذكر أو التحصين أو سؤال الله تعالى والاستعانة به .

وبذلك يكون القرآن قد نفع من يتلوه - بسوره وأبعاضها- على اختلاف درجاتهم؛ إذ منهم الأمي الذي لا يعرف القراءة، والشيخ الذي لم يتعلم شيئًا كثيرًا من القرآن في شبابه، والقارئ الذي يكتفي بقراءة حروفه، والمتأمل الذي يقتنص من تلاوته للقرآن مقاصده وغاياته.

٦- الجمع بين الآيات المكية والمدنية في السورة الواحدة : فمن المعلوم أن القرآن منه ما نزل قبل الهجرة النبوية، ومنه ما نزل بعدها، فالأول يطلق عليه المكي من القرآن تغليبًا، والثاني يطلق عليه المدني لكون معظمه نزل بالمدينة، ولكلٍّ من المكيّ والمدنيِّ خصائصُ موضوعية وأسلوبية تميزه عن قسيمه.

---

(١) وقد أكد هذه الملحوظة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في صفة صلاة النبي (١٠٣) .

ولكن الأمر المُعجِب في بناء السور القرآنية، أنك تُلفي كثيرًا منها قد امتزجت فيه آيات مدنية بأخرى مكية في سياق واحد، وتجدها مع ذلك في غاية الالتئام والانسجام، بحيث تحسَب أن السورة كلها نزلت في مكان واحد، فلا تدري أنها مكية أو مدنية إلا من كتب التفسير، التي تَسِمُ السورة - مثلاً- بكونها مكيةً بناء على الغالب منها وتستثني بعض آياتها فتذكر أنها مدنية النزول، أو العكس، وكثيرًا ما تورد اختلافًا في كونها من هذا القسم أو ذاك.

وهذا البناء المُحكَم يدلنا على أن المقصود من ترتيب آي السورة مُباين للمقصود من ترتيب النزول، فزمان النزول إنما كان على مقتضى سنة التدرج في تنزيل شرائع الإسلام ومراعاة حال المخاطبين في تربيتهم على مبادئها وتكاليفها، أما حكمة وضع الآيات المدنية في سورة مكية أو وضع آيات مكية في سورة مدنية فهي أن هذه الآيات دون غيرها هي التي تخدم مقصود السورة وتلتئم مع المعنى الذي تدور عليه سائر آياتها.

ومن أمثلة السور المكية التي استفتحت بآيات مدنية سورة العنكبوت، ففي قولٍ لابن عباس وقتادة وغيرهما أنها مكية إلا عشر آيات من أولها(١).

ومن أمثلة السور المكية التي جاء في أثنائها آيات مدنية سورة الأنعام، فقد قال ابن عباس وقتادة: هي مكية كلها إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة، وهما قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الآية:٩١] ، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الآية:١٤١](٢).

---

(١) تفسير القرطبي (١٣ / ٣٢٣) .

(٢) زاد المسير (٣ / ٣) ط دار الفكر، د ت .

ومن أمثلة السور المكية التي اختتمت بآيات مدنية النزول سورة النحل فإنها على قول عطاء بن يسار مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد حين قتل حمزة رضي الله عنه ومُثِّل به(١)، وكذلك سورة الشعراء، فإنها على قول ابن عباس وقتادة مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله :﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ [الآية: ٢٢٤] إلى آخرها(٢).

ومن أمثلة السور المدنية التي تخللتها آيات مكية سورة الرعد فهي مدنية إلا آيتين نزلتا بمكة؛ وهما قوله عز وجل:﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ ﴾ [الرعد:٣١] إلى آخرهما(٣).

ومثال سورة مدنية جاءت في ختامها آيات مكية النزول سورة المطففين، فهي على قول ٱبن عباس وقتادة مدنية إلا ثمان آيات من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴾ [الآية:٢٩] إلى آخرها(٤).

وهذه الأمثلة شواهد بيِّنة على كمال تآلف الآيات وتكامل مضامينها، واتصال عُراها .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٥٢٧) وانظر أقوالا أخرى في زاد المسير (٤ / ٣١١) .

(٢) تفسير القرطبي (١٣ / ٨٧).

(٣) المصدر السابق (٩ / ٢٧٨) .

(٤) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٥٠)

المبحث الثاني

عناية المفسرين بعلم المناسبات

لقد استرعى هذا النمط في عرض مضامين السورة اهتمام العلماء قديمًا وحديثًا، فنشأ علم عني ببيان أوجه التعلق والربط بين الآيات التي ظاهرها الانفصال والاستقلال، وهو ما سمي بعلم المناسبات. وقد ظهرت بوادر العناية بالتناسب بين الآيات عند فريقين من المفسرين:

- مفسرون غلب عليهم البحث عن الأسرار البيانية في نظم القرآن الشاهدة بإعجازه.

- مفسرون غلب عليهم الاتجاه الصوفي، فَهُم يلتمسون لطائف القرآن وبدائع إشاراته.

ومن أقدم من اهتم بذلك أبو بكر النيسابوري(١) (ت ٣٣٨ ﻫ) الذي أظهر المناسبات في دروسه التفسيرية ببغداد، فكان يقول: لم جعلت هذه الآية جنب هذه؟وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟(٢).

ثم انتقل إلى طور التأليف حيث يحدثنا أبو بكر بن العربي (ت ٥٤٢ ﻫ) عن هذا العلم وتأليفه فيه فيقول: « ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ، ثم فتح الله لنا فيه، فلما لم نجد له حملة ، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه ، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه

---

(١) هو أبو بكر محمد بن عبدوس بن أحمد النيسابوري المفسر الواعظ، إمام فاضل عالم بمعاني القرآن، كان غزير العلم في الشريعة والأدب. طبقات المفسرين الداودي (٢ / ١٩١).

(٢) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي(١ /٣٦) .

إليه » (١).

والظاهر من كلامه أنه لم يجد من طلاب العلم في زمانه إقبالاً على هذا الفن، فلم يمل تصنيفه على طلابه كعادته في باقي تصانيفه، ولم يعطه للنساخ لينشروه، وإنما أخفاه كما أشار إليه في كتاب "الناسخ والمنسوخ " حيث قال: «والأحكام فيها (أي سورة الأنعام) قليل لعارض بينا وجهه في "ترتيب آي القرآن "، وهو كتاب أخفيناه بعد أن جمعناه لما رأينا فيه من علوه على أقدار أهل الزمان، وأنه ليس له في هذه الأقطار حفِيّ، فوضعناه في سرب خفيّ » (٢).

كما احتفل الفخر الرازي (٦٠٦هـ) بهذا النوع في تفسيره أيما احتفال، حتى إنه كان يورد في تناسب بعض الآيات أكثر من وجه. وقد أفصح عند تفسيره لخواتيم سورة البقرة بأنه أحد وجوه الإعجاز وعاب على المفسرين غفلتهم عنه(٣) فقال : « ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته. ولعل الذين قالوا إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متنبهين لهذه الأمور، وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل :

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر» (٤)

وقد كان للرازي عميق الأثر في المفسرين الذين جاءوا بعده،لا سيما أبي حيان

---

(١) البرهان (١ /٣٦).

(٢) الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم (٢ /٢١٠) تحقيق: د. عبد الكبير العلوي المدغري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ١٩٨٨.

(٣) قال الزركشي معللا ذلك : " وقد قل اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته " البرهان (١ / ٦٢).

(٤) التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب (٧ /١٢٨) دار الكتب العلمية، طهران، ط ٢.

الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) في"البحر المحيط"، والشهاب الخفاجي (ت ٧٩١ هـ) في حاشيته على تفسير البيضاوي، والآلوسي (ت ١٢٨٠ هـ) في "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني".

أما في الغرب الإسلامي فقد برز جانب العناية بالتناسب بين الآيات عند أبي الحكم بن برَّجان الإشبيلي (ت ٥٣٦ هـ) في تفسيره "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم"(١)، ثم عند أبي الحسن الحرّالي المراكشي (ت ٦٣٨ هـ) في تفسيره(٢). وعند أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل المُرْسيّ(٦٥٥ هـ) في تفسيره "رِيّ الظمآن في تفسير القرآن"، حيث قصد فيه ارتباط الآي بعضِها ببعض(٣).ونضجت فكرة التناسب عند أبي جعفر بن الزبير الغرناطي(ت ٧٠٨ هـ)، فألف كتاب " البرهان في ترتيب سور القرآن " في تناسب السور، كما ألف كتابه " مِلاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل "، وبين فيه مناسبة كل آية من الآيات المتشابهة في ألفاظها لمساقها.

وعلى الحرالي وابن الزبير كان اعتماد برهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥ هـ) الذي صنف تفسيرًا حافلاً استوعب فيه المناسبات بين السور والآيات في القرآن كله، وسماه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور".

---

(١) انظر ابن برجان والتفسير الصوفي، محمادي بن عبد السلام الخياطي، أطروحة دكتوراه بدار الحديث الحسنية (٢ /٣٧١ – ٣٩١).

(٢) انظر: أبو الحسن الحرالي المراكشي، أثره ومنهجه في التفسير، محمادي الخياطي رسالة دبلوم الدراسات العليا بدار الحديث الحسنية (٢ /٢٨٩ – ٢٩٩).

(٣) معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦/ ٦٤٢) مؤسسة المعارف، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م.

وعلى نهجه سار الإمام السيوطي (٩١١هـ) حين ألف كتابًا جامعًا لمناسبات السور والآيات مع بيان ما تضمنه القرآن من وجوه الإعجاز وأساليب البلاغة سماه " أسرار التنزيل "(١)، وأفرد كتابا لتناسب السور سماه" تناسق الدرر في تناسب السور".

ومع أنهم كانوا يؤكدون أن فائدة هذا العلم هو "جعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حالَ البناء المحكم المتلائم الأجزاء "(٢)؛ فإن قصارى ما كانوا يعمله أكثرهم هو التماس بعض أوجه الربط بين الآيات دون أن يضعوا أيديهم على الخيط الجامع الذي تنتظم فيه حبات عقد السورة، وكانت عنايتهم بالمناسبات من باب استجلاء اللطائف التفسيرية التي يستدل بها على جمال القرآن وعلو نظمه، باعتبار التناسب المعنوي من محاسن الكلام، مما جعل علم المناسبات من مُلَح علم التفسير لا من متينه. وقد أوغل في البعد عن تحقيق ثمرته حين صارت المناسبات حبيسة لبعض الاصطلاحات البلاغية والظواهر الأسلوبية، كما تجده عند الزركشي (٧٩٤هـ) والسيوطي حيث يتحدثون عن التناسب حديثَ البيانيين ويستعرضون أساليب الربط بين الآيات : كالتنظير، و المضادة، والاستطراد، والتذييل والعطف، والالتفات والاعتراض وغيرها(٣).

وعلى هذا النحو كان محمد الطاهر بن عاشور في بيانه للتناسب في"التحرير والتنوير" يوظف مبحث الجمل من النحو ومباحث الفصل والوصل

---

(١) انظر تناسق الدرر حيث ذكر الأنواع الأربعة عشر التي اشتمل عليها هذا الكتاب (ص٥٣ -٥٤).

(٢) البرهان (١/ ٣٦).

(٣) انظر المصدر السابق (١ /٤٠ – ٥٠)، والإتقان في علوم القرآن (٢ /١٠٨ – ١٠٩).

والاستئناف البياني والابتدائي من البلاغة وغير ذلك(١)، ويغرق المناسبات في سيل من المصطلحات الأسلوبية.

ومن جهة أخرى فإن بعض المناسبات التي ذكرها بعض أولئك المفسرين لم تخل من شيء من التكلف والتمحل(٢)، وذلك لخفاء وجه التناسب ودقته في كثير من الآيات، واعتمادهم في بيانها على مجرد الرأي والذوق، وذلك ما جعل بعض العلماء كالعز بن عبد السلام (ت ٦٦٠ﻫ) يشترط أن تُلتمَس المناسبة في كلام متحد يرتبط أوله بآخره، فإن وقع الكلام على أسباب مختلفة لم يلزم في رأيه أن يكون أحد الكلامين مرتبطًا بالآخر(٣).

وبالغ الإمام الشوكاني (ت ١٢٥٠ﻫ) فعدّ علم المناسبات علمًا متكلفًا ليس من ورائه فائدة، وأنحى باللائمة على المفسرين الذين اشتغلوا به، وأطال الاحتجاج في إبطال هذا المسلك(٤).

ولكن إنكاره محمول على أوجه التناسب البعيدة؛ إذ هو نفسه كان يذكر في تفسيره بعض المناسبات القريبة حين بيان علة انتقال سياق الآيات من موضوع إلى آخر(٥).

---

(١) انظر (١ /١١٦ – ٣٧٧) الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ م.

(٢) وهذا ما تعلق به الشوكاني فقال : "و ذلك أنه أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف، جاؤوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه " فتح القدير (١ / ٧٢).

(٣) انظر البرهان (١/٣٧).

(٤) انظر فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير (١ /٨٥ –٨٧) ط. ابن كثير بدمشق.

(٥) انظر (١ / ١٨٣ ــ ١٨٤ و١٨٨ و٢٤١).

ومرد هذا النقد هو أن معظم المفسرين الذين اعتنوا ببيان المناسبات كانوا يصرفون أنظارهم إلى التناسب بين الآيات معتمدين على السياق القريب دون أن ينظروا إليها نظرة شمولية يشرفون فيها على بناء السورة ليبصروا موقع كل قضية تناولتها من نظامها الكلي الذي وضعت عليه في جملتها، وهذا ما جعلهم يذكرون أحيانا مناسبات بعيدة وأوجها ضعيفة لا تبرز التحام الآيات واتساق معانيها، وإنما تزيدها تفككًا وانفصالاً، ومن ثم لم تحقق تلك المناسبات ثمرتها المرجوة منها، لأنها كانت منفصلة عن غرض السورة المحوري الذي تشتبك حوله سائر موضوعاتها.

ولعل أول من صرح بعلاقة المناسبات الوثقى بمقصود السورة العام هو أبو الفضل المَشَذّالي البجائي (ت ٨٦٥ هـ)(١) الذي أخذ عنه البقاعي المنهج الأمثل في التوصل إلى أوجه التناسب بين الآيات. وقد نص على ذلك في مطلع تفسيره للفاتحة حيث قال: « قال شيخنا الإمام المحقق أبو الفضل محمد بن العلامة القدوة أبي القاسم محمد المشذالي المغربي البجائي المالكي علامة الزمان : الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك – إن شاء الله– وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة سورة »(٢).

---

(١) مفتي بجاية وخطيبها، من مؤلفاته مختصر البيان لابن رشد والفتاوى .ترجمته في توشيح الديباج لبدر الدين القرافي (٢١٩ –٢٢٠)، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (١١ /٢٥٩).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/١٧–١٨) توزيع مكتبة ابن تيمية، ط١، ١٩٦٩.

المبحث الثالث

عناية العلماء المتقدمين ببيان مقاصد السور

من أوائل المفسرين الذين استبصروا بوحدة نسق السورة وأدركوا أن لكل سورة مقصودًا رئيسًا تدور عليه جميع أجزائها أبو الحكم بن برجان، إذ كان ينبه في غير موضع على غرض السورة الذي تأسست عليه، لا سيما في الربع الأخير من القرآن، ومن أمثلة ذلك قوله في سورة القمر:"الغرض الأساسي فيها هو إثبات نبوة محمد عليه السلام وتصحيح رسالته وأنه في ذلك على سبيل سلوكه للأنبياء والرسل قبله الذين أرسلوا إلى أمم لهم، فعصوهم وأهلكهم الله، وأن موعدهم الساعة. والحض على التذكر والتفكر والاعتبار وأن العاقبة للمؤمنين والمتقين "(١)، وتتردد عنده أمثال هذه العبارات: "وتأسيس تنزيل هذه السورة"، "المراد إثباته في هذه السورة"، " الغرض في هذه السورة".

وقد رأى بعض الباحثين(٢) أن استشعار الموضوع الكلي للسورة قد ظهرت ملامحه عند الرازي، وضرب له مثالاً يتيمًا حيث يقول في سورة النساء: « اعلم أن هذه السورة مشتملة على أنواع كثيرة من التكاليف، وذلك لأنه تعالى أمر الناس في أول هذه السورة بالتعطف على الأولاد والنساء والأيتام والرأفة بهم وإيصال حقوقهم إليهم وحفظ أموالهم عليهم، وبهذا المعنى ختمت السورة» (٣)، وهو-كما ترى – لم يكشف عن غرض السورة الأساس، وإنما ذكر الطابع العام

---

(١) انظر: ابن برجان والتفسير الصوفي (٢ /٤٠٢).

(٢) د.رفعت فوزي عبد المطلب، الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية (ص ٧)، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م.

(٣) التفسير الكبير (٣ /١٥٩).

الذي يغلب على موضوعاتها.

وممن استشعر باختلاف سياق كل سورة عن غيرها الإمام أبو القاسم عبد الكريم القشيري في تفسيره " لطائف الإشارات "، وهذا ما أفصح به محققه الدكتور إبراهيم بسيوني في مقدمته حيث قال: « سار القشيري في اللطائف على خطة واضحة محددة..فهو يبدأ بتفسير البسملة كلمة كلمة...ومع تكرار البسملة في كل سورة فإنه يفسرها كل مرة على نحو ملفت للنظر...ويزداد إعجابنا بالقشيري كلما وجدنا تفسير البسملة يتمشى مع السياق العام للسورة كلها » (١).

وممن تنبه إلى الغرض الأساس للسورة أبو جعفر بن الزبير الغرناطي الذي كان يبني التناسب بين بعض السور في كتابه "البرهان" على تلاحم مقاصدها.

ومن ذلك بيانه لمجمل معاني سورة البقرة، حيث استعرض أبرز معانيها وخلص إلى وحدتها قائلاً: « فحصل من السورة بأسرها بيان الصراط المستقيم على الاستيفاء والكمال أخذًا وتركا، وبيان شرف من أخذ به وسوء حال من تنكب عنه» (٢).

وكذلك قوله عن سورة المائدة: « فحصل من جملتها الأمر بالوفاء فيما تقدمها، وحال من حاد ونقض، وعاقبة من وفّى وأنهم الصادقون» (٣).

ومن العلماء الذين تنبهوا إلى تعانق موضاعات السورة المختلفة ودورانها

---

(١) لطائف الإشارات (١ / ٢٦)، وانظر تفسيره للبسملة في سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء على التوالي (١ / ٤٤ و٥٢ و٢١٧ـ ٢١٨ و٣١٠).

(٢) البرهان في ترتيب سور القرآن(ص١٩٤)تحقيق محمد شعباني، منشورات وزارة الأوقاف، المغرب ١٩٩٣م.

(٣) المصدر السابق (٢٠٣) وانظر (ص ٢٠٥ و٢٢٦ و٢٨٦ و٣٢٢و ٣٢٩)، ولي بحث قيد الإعداد في نظرية النسق القرآني عند أبي جعفر بن الزبير .

حول غرض واحد ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) وتلميذه ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)؛ أما ابن تيمية فحديثه عن بعض السور كان يَشِي باستشعاره بالهدف المحوري للسورة وتناسب معانيها المتفرعة، ومن أمثلة ذلك قوله: « سورة المائدة أجمع سورة في القرآن لفروع الشرائع من التحليل والتحريم، والأمر والنهي؛ ولهذا روي عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال: هي آخر القرآن نزولاً فأحلوا حلالها وحَرَّموا حرامها، ولهذا افتتحت بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة:١] ، والعقود هي العهود، وذكر فيها من التحليل والتحريم والإيجاب ما لم يذكر في غيرها، والآيات فيها متناسبة مثل قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [المائدة:٨٧] »(١). وكان يبين أن المعاني على تشعبها متناسبة في موضعها، ولذلك قال عند استعراضه لمواضيع سورة البقرة:«فتدبر تناسب القرآن وارتباط بعضه ببعض»(٢).

أما ابن القيم فمع أنه لم يصنف كتابًا في التفسير، إلا أن ما بثه في تضاعيف كتبه المتعددة يدلنا على التفاته للسياق العام للسورة القرآنية واستجلائه لمقصودها، ومن أبرز الأمثلة التي وقفت عليها قوله بعد تحليل بديع لمجموع آيات سورة العنكبوت: « فمضمون هذه السورة هو سر الخلق والأمر؛ فإنها سورة الابتلاء والامتحان وبيان حال أهل البلوى في الدنيا والآخرة، ومن تأمل فاتحتها ووسطها وخاتمتها وجد في ضمنها أن أول الأمر ابتلاء وامتحان، ووسطه صبر

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٤ / ٤٤٨)، وانظر وصفه للبقرة بأنها أجمع سور القرآن لقواعد الدين أصوله وفروعه وبيانه لتقرير خواتيمها لمضمونها (١٤ / ٤١ و١٢٩).

(٢) المصدر السابق (١٤/ ٤٤) .

وتوكل، وآخره هداية ونصر »(١).

وممن لمح وحدة نسق السور القرآنية مع تعدد القضايا التي تتضمنها أبو إسحاق الشاطبي (ت٧٩٠هـ)، إذ استبان له أن السورة وإن تعددت قضاياها فهي باعتبار النظم كلام واحد متصل من أوله إلى آخره، فلا يُسوِّغ لنا تعددُ قضاياها أن ننظر إليها باعتبارها أجزاء مستقلة عن بعضها، بل لا بد من استيفائها بالنظر لمن أراد التفهم السديد لها بناء على أن نظمها وترتيبها مأخوذ من الوحي، وقد أعرب عن ذلك فقال: « وجميع ذلك لا بد فيه من النظر في أول الكلام وآخره بحسب تلك الاعتبارات. فاعتبار جهة النظم مثلاً في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر، فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود، كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد النظر في جميعها، فسورة البقرة - مثلاً- كلام واحد باعتبار النظم، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بث فيها، منها ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب، ومنها ما هو المؤكد والمتمم ومنها ما هو المقصود في الإنزال، وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب منها، ومنها الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت وما أشبه ذلك »(٢).

وقد ضرب مثلاً آخر لسورة تعددت معانيها وبين أن جميع آياتها تدور على مقصود واحد، فقال: « وسورة المؤمنين نازلة في قضية واحدة وإن اشتملت على معان كثيرة، فإنها من المكيات، وغالب المكي أنه مقرر لثلاثة معان أصلها معنى واحد، وهو الدعاء إلى عبادة الله تعالى، أحدها: تقرير الوحدانية لله...

---

(١) بدائع التفسير لابن القيم، جمع : يسري السيد محمد (٣/٣٧٠) نقلاً عن شفاء العليل (٢٤٧) .

(٢) الموافقات في أصول الأحكام (ج ٣ /٣١٠ ــ ٣١١)، دار الكتب العلمية د. ت.

والثاني: تقرير النبوة للنبي محمد...والثالث: إثبات أمر البعث والدار الآخرة...وما ظهر ببادئ الرأي خروجه عنها فراجع إليها في محصول الأمر...فإذا تقرر هذا وعدنا إلى النظر في سورة المؤمنين مثلاً وجدنا فيها المعاني الثلاثة على أوضح الوجوه، إلا أنه غلب على نسقها ذكر إنكار الكفار للنبوة التي هي المدخل للمعنيين الباقيين »⁽¹⁾. وبعد استعراض جملة من آياتها والربط بين معانيها خلص إلى وحدة موضوعاتها قائلاً : « فسورة المؤمنين قصة واحدة في شيء واحد »⁽²⁾.

وقال في موضع آخر مؤكدًا أن النفي الوارد في قوله تعالى :﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] وارد على ظلم مخصوص وهو الشرك والافتراء على الله والتكذيب بآياته : « فإن سياق الكلام يدل على أن المراد بالظلم أنواع الشرك على الخصوص؛ فإن السورة من أولها إلى آخرها مقررة لقواعد التوحيد وهادمة لقواعد الشرك وما يليه »⁽³⁾. كما ذكر في موضع آخر أن سورة البقرة هي التي قررت قواعد التقوى ⁽⁴⁾.

وقد اكتمل الإحساس بوحدة بناء السورة وتعانق موضوعاتها عند البقاعي الذي أبدع علمًا جديدًا من علوم القرآن هو علم مقاصد السور، وأفرده بكتاب استعرض فيه مقصود كل سورة، وبين فيه مناسبة اسمها لغرضها الذي تدور عليه سائر معانيها، قال في مقدمته: « فإن كل سورة لها مقصد واحد يدار عليه أولها وآخرها، ويستدل عليه فيها، فترتب المقدمات الدالة عليه على أتقن وجه وأبدع

---

(١) المصدر السابق (٣ / ٣١٢).

(٢) المصدر السابق (٣ / ٣١٢).

(٣) الموافقات (ج ٣ / ٢٠٥).

(٤) المصدر السابق (ج٣ / ٣٠٥)

نهج، وإذا كان فيها شيء يحتاج إلى دليل استدل عليه، وهكذا في دليل الدليل، وهلم جرا، فإذا وصل الأمر إلى غايته ختم بما منه كان ابتدأ، ثم انعطف الكلام إليه وعاد النظر عليه على نهج آخر بديع، ومرقى غير الأول منيع...وآخِرُ السورة قد واصل أولها كما لاحَم انتهاؤها ما بعدها، وعانق ابتداؤها ما قبلها، فصارت كل سورة دائرة كبرى مشتملة على دوائر الآيات الغُرّ، البديعة النظم العجيبة الضم...» (١).

وقد وفق في إبراز وحدة السورة ودوران موضوعاتها المختلفة على غرض واحد، وأورد مثالاً تطبيقيًا في المقدمة بين فيه كيف توالت أجزاء سورة البقرة على إقامة الدليل على أن الكتاب هدى مما دل على أنه مقصودها المحوري فقال : «مثاله: مقصود سورة البقرة وصف الكتاب المذكور أولها بصريح اسمه الناظر بأصل مدلوله إلى جمعه لكل خير، المشير بوصفه إلى ما في آخر الفاتحة من سؤال الهداية والإبعاد من طريق الضلال، ثم بوصفه في قوله:﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [الآية:٤] المنوه آخرها بالذين آمنوا به في قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [الآية: ٢٨٥] إلى آخره. وذلك هو عين أولها لكونها تعيينًا لرؤوس من شمله وصف التقوى في فاتحتها... » (٢).

ثم راح يستعرض مساقات الآي وأجزاء السورة وينبه كيف أنها تخدم هدف السورة الذي ذكره، وأنها ترجع إلى بيان شأنه مرة بعد أخرى « حتى عُرِف أنه مقصودها وسر معانيها وعمودها » (٣).

---

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (١ /١٤٩)، تحقيق عبد السميع محمد أحمد حسنين. مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٩٨٧م.

(٢) المصدر السابق (١ /١٥٠).

(٣) المصدر السابق (١ /١٥١).

المبحث الرابع

جهود المعاصرين في الكشف عن مقاصد السور

أما المعاصرون فإنهم قد أفادوا مما وصل إليه المتقدمون في هذا الشأن، وساروا بخطوات ثابتة نحو استجلاء المحور الذي تشد إليه جميع موضوعات السورة، وقد استطاع بعضهم أن ينظر بعين متفحصة إلى أجزاء السورة ويبصر بناءها المتكامل المتسق، ويضع يده على غرضها الرئيس بشكل أدق مما توصل إليه بعض المفسرين من قبل.

وفي طليعة المفسرين الذين أدركوا وحدة السورة وحسن اتساقها رشيد رضا، فقد ألمع في تفسيره إلى كون الجمع بين الموضوعات المتعددة والنسيج الواحد المتماسك أحد دلائل الإعجاز، فقال : « إن التفنن في مسائل مختلفة ... منتظمة في سلك موضوع واحد هو من أنواع بلاغة القرآن وخصائصه المذهبية التي لم تسبق، ولن يَبلغ شأوَه فيها بليغ، والكلام لم يخرج بهذا التنويع عن انتظامه في سلكه وحسن اتساقه »(١).

و يعد أديب العربية مصطفى صادق الرافعي من الذين تبينوا في بناء السورة رابطًا خفيًا يرص لبناتها مع تعدد وجوه الكلام فيها أمرًا ونهيًا وتبشيرًا وتحذيرًا وإخبارًا وتمثيلاً، وقد سمى هذا الرابط بروح التركيب حيث قال: « فهذه الروح التركيبية وهذه الوحدة الموضوعية هي التي تميز القرآن عن غيره رغم تعدد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم وضرب الأمثال والجدل والتشريع ... ولولا تلك الروح لخرج أجزاء

---

(١) تفسير المنار (١ / ٢٨٩) .

متفاوتة على مقدار ما بين هذه المعاني ومواقعها في النفوس، وعلى مقدار ما بين الألفاظ والأساليب التي تؤديها حقيقة ومجازًا،كما تعرفه كلام البلغاء عند تباين الوجوه التي يتصرف فيها »(١).

ومن المفسرين الذين حاولوا التنبيه على مجمل أغراض السورة محمد الطاهر بن عاشور، وقد نص على ذلك في مقدمته حيث قال: « ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفرداته ومعاني جمله كأنها فقر متفرقة تصرف عن روعة انسجامه وتحجب عن روائع جماله »(٢). ومن ذلك تقسيمه لأغراض سورة البقرة بعد أن قرر تنوع مواضيعها إلى قسمين :

الأول: يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه، وعلو هديه، وأصول تطهيره للنفوس.

الثاني: يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعهم ... وكان في خلال ذلك أغراض شتى سيقت في معرض الاستطراد في متفرق المناسبات ...(٣).

ولكن أحسن من استشعر وحدة النسق القرآني واستدل لها وأطنب في إثباتها وعمد إلى إبرازها تطبيقيا في إحدى سور القرآن الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه "النبأ العظيم"، حيث توخى بيان حسن التأليف في السورة الواحدة التي تتنوع فيها الموضوعات باعتباره أحد وجوه الإعجاز،فبين أن القرآن كان يتنزل منجمًا حسب الوقائع والدواعي المتجددة، وأن الانفصال

---

(١) إعجاز القرآن (٢٤٥)

(٢) تفسير التحرير والتنوير (١ / ٨).

(٣) تفسير التحرير والتنوير (١ / ٢٠٣).

الزمني بينها واختلاف دواعيها كانا داعيين إلى ضعف الترابط وعدم الانسجام، ومع ذلك فإن تدبر أي سورة يوقفك على جليل الالتحام وبديع التناسق بصورة لا تعرف منها أأُنزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى، وقد صور تماسك بناء السورة فقال بتعبير بليغ: « إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثًا من المعاني حشيت حشوًا، وأوزاعًا من المباني جمعت عفوًا، فإذا هي لو تدبرت بنية متماسكة، بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة،كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام، كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد... »⁽¹⁾.

ثم بين دراز أن الصلة بين أجزاء السورة لا تعني اتحادها أو تماثلها أو ما إلى ذلك، بل إن القرآن سلك في الانتقال من معنى إلى آخر مسالك شتى، فتراه تارة يجاور بين الأضداد فيبرز محاسنها ومساوئها، وتارة يعمد إلى الأمور المختلفة من غير تضاد فيجعلها تتعاون في أحكامها بسوق بعضها إلى بعض مساق التنظير أو التفريع أو الاستشهاد أو الاستنباط أو التكميل أو الاحتراس إلى غير ذلك. وأحيانا يقرن بين معنيين في النظم لاقترانهما في الوقوع التاريخي أو الوضع المكاني استجابة لحاجات النفوس التي تتداعى فيها تلك المعاني⁽²⁾.

---

(١) النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن (١٥٥)، دار القلم، الكويت، ط٢، ١٩٧٠.

(٢) المصدر السابق (١٦١ – ١٦٢).

وقد اختار سورة البقرة نموذجا على وحدة النسق في السورة القرآنية، فهي أطول سور القرآن، وأكثرها نجومًا وأبعدها تراخيًا⁽¹⁾، وتلك دواع قوية لجعل نظم هذه السورة متباين المعاني متناثر الأجزاء، ومع ذلك أثبت أن بين أجزائها وشائج قوية، وأوضح أن بنيتها تتألف من مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة. فالمقدمة في التعريف بشأن هذا القرآن، وأنه لا يصد عنه إلا من في قلبه مرض.

والمقصد الأول: في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام.

والمقصد الثاني: في دعوة أهل الكتاب بخاصة إلى ترك باطلهم والدخول في الإسلام.

والمقصد الثالث: في عرض شرائع هذا الدين تفصيلاً.

والمقصد الرابع: في ذكر الوازع الديني الذي يبعث على العمل بتلك الشرائع ويعصم عن مخالفتها.

والخاتمة: في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة للمقاصد المذكورة وبيان ما يرجى لهم في الدنيا والآخرة (٢).

وقد حاول أن يعرض السورة عرضًا إجماليًا يبين فيه خط سيرها إلى غايتها، ويبرز نظامها المعنوي في جملتها، ويظهر كيف وقعت كل حلقة موقعها في السلسلة الكبرى، وكيف أن كل قسم ملتئم في نفسه، ومتسق مع سائر الأقسام. ولعل دراز يكون بذلك أول من سن التفسير الإجمالي الذي يلحظ

---

(١) فقد نزلت في نيف وثمانين نجما، ومن آياتها ما نزل في أوائل السنة الثانية للهجرة، ومنها ما نزل في آخر السنة العاشرة (ص ١٥٨).

(٢) المصدر السابق (ص ١٦٣).

وحدة أجزاء السورة. وإن كنا نلاحظ أنه لم يعبر بعبارة جامعة تشمل المقاصد الأربعة وترجعها إلى مقصود واحد على نحو ما يصنع البقاعي.

وإذا كان عمل دراز قد توقف عند سورة البقرة، فإن سيد قطب كان من أوائل المفسرين الذين أبرزوا وحدة النسق في السور القرآنية كلها تطبيقيًا في كتابه " في ظلال القرآن "، فقد استشعر أن السورة وحدة متلاحمة، قد تتعدد مواضيعها وتتنوع مقاصدها ولكنها تشد في النهاية إلى محور واحد هو غايتها ومآلها. وقد أفضت به رحلته في ظلال القرآن وعيشه بين جنباته إلى أن يفصح بذلك قائلاً: « إن لكل سورة من سور القرآن شخصية مميزة، شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها موضوع رئيس أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص، ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها. ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو »⁽¹⁾. ويقول في موضع آخر: « إن كل سورة من سور القرآن ذات شخصية متفردة، وذات ملامح متميزة، وذات منهج خاص، وذات أسلوب معين، وذات مجال متخصص في علاج هذا الموضوع الواحد، وهذه القضية الكبرى، إنها كلها تتجمع على الموضوع والغاية »⁽²⁾.

ولهذا كان يعمد إلى افتتاح السور التي يفسرها بعرض خطوطها العريضة وموضوعاتها البارزة بحيث يبين انسجامها منبهًا على الغرض المحوري الذي تدور حوله . ثم يسير في ضوء ما قرر ليحلل الآيات ويضع أيدينا بيسر على

---

(١) (٢٨/١) ط. دار الشروق . القاهرة. ط٩ . ١٩٨٠م.

(٢) المصدر السابق (١٢٤٣/٣)

وجه الانتقال من موضوع إلى موضوع.

ومن أمثلة بيانه لمقاصد السور قوله في سورة النساء : « هذه السورة بما تضمنته من تشريعات وتوجيهات تهدف أساسًا إلى محو ملامح المجتمع الجاهلي وتكييف ملامح المجتمع المسلم وتطهيره من رواسب الجاهلية فيه، وتلفت الأنظار إلى الدفاع عن كيانه المميز، وذلك ببيان طبيعة منهجه، والتعريف بأعدائه الراصدين له من حوله من المشركين واليهود والمنافقين وكف حيلهم ومكائدهم وبيان فساد تصوراتهم ومناهجهم مع وضع الأنظمة والتشريعات التي تنظم المسلم، وتصبه في قالب مضبوط » (١).

ومن ذلك قوله في موضوع سورة الأنعام: « إن موضوعها الذي تعالجه من مبدئها إلى منتهاها هو موضوع العقيدة بكل مقوماتها وبكل مكوناتها، وهى تأخذ بمجامع النفس البشرية، وتطوف بها في الوجود كله ... إنها تطوف بالنفس البشرية في ملكوت السماوات والأرض، تلحظ فيها الظلمات والنور، وترقب الشمس والقمر والنجوم، وتسرح في الجنات المعروشات وغير المعروشات...»(٢).

ومن أمثلة عنايته بمحور السورة العام وتتابعه وربطه بسياقها قوله في سورة الكهف: « محور السورة هو تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج الفكر والنظر،وتصحيح القيم بميزان العقيدة، ويسير سياق السورة حول هذه الموضوعات الرئيسية في أشواط متتابعة » (٣).

---

(١) المصدر السابق (٢ /٥٥٥).

(٢) المصدر السابق (٢ / ١٠١٦).

(٣) المصدر السابق (٥ / ٥٢) .

ويقول أيضاً في سورة النحل مبيناً مناسبة التعبير بقوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل:٢] لنسق السورة: «معظم سياق السورة يدور حول المكذبين والمشركين والجاحدين لنعمة الله ، والمحرمين ما أحله الله، والناقضين لعهد الله، والمرتدين عن الإيمان،ومن ثم يكون إظهار الإنذار أليق في هذا السياق. وتكون الدعوة إلى التقوى والحذر والخوف أولى في هذا المقام» (١).

كما التفت رحمه الله إلى تناسق بعض السور القرآنية المتوالية في ترتيبها والوشائج التي تصل بينها، ومن ذلك قوله في شأن سورة المائدة : « ومن ثم نجد في هذه السورة كما وجدنا في السور الثلاث الطوال قبلها – موضوعات شتى، الرابط بينها جميعًا هو هذا الهدف الذي جاء القرآن كله لتحقيقه : إنشاء أمة وإقامة دولة، وتنظيم مجتمع، على أساس من عقيدة خاصة، وتصور معين، وبناء جديد..الأصل فيه إفراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان، وتلقي منهج الحياة وشريعتها ونظامها وموازينها وقيمها منه بلا شريك.. » (٢).

وقد كان لسيد قطب أعمق الأثر في باقي المفسرين المعاصرين ، وأول من تأثر به شقيقُه محمد قطب الذي استحضر هذه الخصيصة في دراساته القرآنية ، وتَكشَّف له أن ما يتكرر ذكره في سور متعددة لا يكون تكراراً تاماً ؛ بل إنه يحمل دلالات جديدة حسب السياق الذي ورد فيه ، وقرر« أن كل سورة من سور القرآن على إطلاقها لها شخصيتها المتميزة وجَوُّها الخاص ، وكل نص من نصوص القرآن – وإن بدا متشابهًا – فإنه يأخذ جو السورة التي يرد فيها ، ومن ثم تكون له

---

(١) المصدر السابق (٤/٤٥٤) .

(٢) يراجع الظلال (٢/ ٨٢٥)بتصرف يسير.

ملامحه الخاصة في كل مرة » (١) .

وفي دراسته لسورة البقرة أكد على وحدة موضاعاها مع تنوعها بشكل لا تماثله موضوعات سورة أخرى فقال: « ولأول وهلة يبدو هذا الحشد مجرد انتقال من موضوع إلى موضوع بغير نظام! وذلك الذي يقوله الذين لا يعلمون من المستشرقين وتلامذهم المثقفين! ولكن هذه السورة ورغم طولها ذلك، ورغم هذا الحشد المتنوع من الموضوعات، ذاتُ تنسيق دقيق في بنائها، يربط هذا الحشد المتنوع كله في رباط محكم، بحيث يصبح له على تنوعه أهداف واضحة محددة، وشخصية موحدة » (٢).

وفي تدبره لسورة النساء يستوقفه الانتقال الذي قد يبدو مفاجئًا من حديث عن العقيدة إلى الحديث عن شعيرة من الشعائر، إلى حكم من أحكام المعاملات إلى توجيه اجتماعي أو اقتصادي أو عسكري، ومِن تأمُّله في ذلك كله يخلص إلى كون المقصود من ذلك هو تذكيرنا بوحدة هذا الدين وتكامل شرائعه وشعائره، وأنه ليس عقيدة فحسب، أو أحكامًا، أو آدابًا فحسب، بل هو كُلّ لا يتجزأ، وعلينا أن نتلقاه ونأخذه بكليته؛ قال : « وهذا النسق الخاص من العرض الذي ينتقل فيه السياق من نقطة إلى أخرى بلا انفصال جدير بأن يكشف لنا عن هذه الحقيقة في هذا الدين، وهي اتصال موضوعاته وجزئياته اتصالاً عضويًا غير قابل للانفصال .. بالضبط كما يعرضها السياق القرآني ، متصلة على اختلافها بلا انقطاع ولا انفصال ... والله يريد لنا أن نتعرف على ديننا في صورته الشاملة المتصلة المترابطة ، ولكيلا يتجزأ في حسّنا وفي ممارستنا إلى

---

(١) دراسات قرآنية (٢٤٨).

(٢) المصدر نفسه (٢٧٧) .

صورته الشاملة المتصلة المترابطة، ولكيلا يتجزأ في حِسّنا وفي ممارستنا إلى موضوعات منفصلة لا يربط بينها رباط » (١).

أما محمد عزة دروزة فقد نص في مقدمة تفسيره على أن من معالم منهجه الاهتمام ببيان ما بين آيات السور وفصولها من ترابط كلما كان ذلك مفهوم الدلالة لتجلية النظم القرآني والتلاحم الموضوعي فيه (٢)، ولكن لم تتضح له المحاور الموضوعية والمقاصد التي تهدف إليها السورة، ثم إنه تجانف عن سبيل الصواب حين رتب السور على حسب ترتيب النزول بدل ترتيبها كما جاءت في المصحف . ويكفي في نقض هذا المنهج أن كثيرًا من الآيات لا يدرى على وجه الدقة زمن نزولها، وبعض السور اجتمع فيها ما نزل قبل الهجرة وما نزل بعدها وما نزل في زمن وما تأخرعنه في النزول بمدة مديدة . ولا توجد أدلة على ترتيب النزول بشكل يستقصي القرآن كله، وذلك من تدبير الله لكتابه؛ حتى لا تفكر الأمة إلا في ترتيب التلاوة الذي استقر عليه وما يحويه من حِكَم وما يترتب عليه من فوائد .

ولكن أهم من سار على نهج سيد قطب وعمق الخط الذي ابتدأه –فيما أرى– هو سعيد حوى في كتابه "الأساس في التفسير"، إذ لم يقتصر فقط على وحدة نسق السورة، بل بنى بيانه لهذه الوحدة على نظرية شاملة تنطلق من وحدة نسق القرآن كله. فقد حرص على ربط معاني كل سورة يفسرها بمطلع سورة سبقتها أو موضوعها أو إحدى آياتها، كما اهتم في السورة الواحدة بإبراز الروابط المعنوية بين المقاصد والموضوعات التي تتضمنها بعد تقسيمها إلى

---

(١) المصدر نفسه (٤٠٥ ــ ٤٠٦) .

(٢) التفسير الحديث (١/ ٦).

مجموعات وفقرات ومقاطع وأقسام حسب طول السورة. ففي سورة البقرة مثلاً يتعرض بعد تفسير كل مقطع إلى ذكر وجه مناسبته لباقي المقاطع، ويبين بعد تمام كل قسم اتصاله بالقسم الآخر. ومن ذلك قوله: «إن القسم الثاني يكمل القسم الأول ويكمل مقدمة السورة في الدلالة على التقوى أركانًا وطريقًا واستقامة. ومن خلال القسم الأول والثاني نعرف محل أركان الإسلام الخمسة في قضية التقوى. فالملاحظ أن مقدمة سورة البقرة ذكرت من أركان الإسلام: الإيمان والصلاة والإنفاق، فذكر القسم الثاني من أركان الإسلام الصوم والحج...وبعد ذلك يأتي القسم الثالث فيتحدث عن أمر الدخول في الإسلام...وفي ذلك كله مظهر من مظاهر وحدة السورة وتكامل معانيها وارتباط بعضها ببعض »⁽¹⁾.

و قد برع في تقسيم مقاطع السورة واستهدى بالمعاني المستقلة مع الاستئناس ببعض الكلمات القرآنية المتكررة في مواضع من السورة، حيث اعتبرها علامة لابتداء مقطع جديد، وقد أفصح بذلك في تفسيره لسورة الأنعام فقال : «جرينا أن نعتمد مثل هذه العلامات حيث وجدت وساعد المعنى في تحديد بداية المقطع ونهايته، ولكن الشيء الأكثر تحديدًا والذي يجعلنا نحدد به المقطع أو القسم بشكل دائم بداية ونهاية هو المعنى»⁽²⁾، ومن أمثلة ذلك ما صنعه في سورة (ص)حيث قسم المقطع الأخير منها إلى ثلاث مجموعات، كل مجموعة منها تبدأ بقوله تعالى﴿ قُلۡ ﴾:

المجموعة الأولى تبدأ بقوله تعالى﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ﴾[الآية:٦٥].

---

(١) (٣٦٥/١) دار السلام. القاهرة. ط ٥. ١٩٩٩.

(٢) المصدر السابق (٣ / ١٥٦٧) .

والمجموعة الثانية تبدأ بقوله تعالى﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴾ [الآية:٦٧].

والمجموعة الثالثة تبدأ بقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [الآية ٨٦ إلى آخر السورة] (١).

ويعلق على هذا التقسيم بقوله: نلاحظ أن كلمة ﴿ قُلْ ﴾ تكررت في المقطع ثلاث مرات ،ومن ثم فالمقطع يتألف من ثلاث مجموعات، كل مجموعة تسهم في توجيه الإنذار إلى المشركين وإقامة الحجة عليهم ضمن سياق السورة وبما يخدم محورها .

ومن خلال استكشافه لمقاصد السور ومحاورها الموضوعية كان يستجلي تكاملها، فهو يقول مثلا عن سورة المائدة : « إن سورة المائدة تفصل فيما هو نقض للميثاق، وفيما هو قطع لما أمر الله به أن يوصل، وفيما هو إفساد في الأرض، فتدعونا لتركه وتطالبنا بما لو فعلناه لا نكون فاسقين ولا خاسرين ... فهي تكمل سورة النساء، فإذا كانت سورة النساء قد فصلت فيما هو من التقوى، فسورة المائدة تفصل فيما ليس من التقوى لتعمق عندنا قضية التقوى وتحققنا بها بتخليصنا من أضدادها ... » (٢).

وقد تميز سعيد حوّى بمحاولة رائدة في كشف النسق القرآني العام ملتمسا لخيوط الوحدة بين طائفة من السور المتوالية في ترتيب المصحف، ويعبر عنها بكلمة زمرة، ويعني بها مجموعة السور التي تتحد في خصيصة معينة ولكنها تنتسب إلى أكثر من مجموعة داخل القسم، وذلك كزمرة الحواميم التي

---

(١) المصدر السابق (٩ / ٤٨٥٤) .

(٢) المصدر السابق (٣ /١٢٩٧ ـــ ١٢٩٨) باختصار .

قدم لها في مقدمة سورة غافر تحت عنوان " كلمة في زمرة آل حم "(١). ثم ختم الحديث عنها في سورة الأحقاف تحت عنوان " كلمة أخيرة في سورة الأحقاف وزمرة آل حم "، تحدث فيها عن مضمون هذه السور وأوجه التناسب بينها(٢) .

كما امتد نظره إلى النسق الذي تشكله السور القرآنية واكتشف أن سورة البقرة تفصيل لما أجملته سورة الفاتحة من مقاصد ومعان، وأن السور التالية لسورة البقرة لتفصل في معان واردة فيها .. بحيث تتصل كل سورة بآية في سورة البقرة وبارتباطاتها وامتداداتها، فسورة آل عمران تلقي أضواء التفصيل على الآيات الأولى من سورة البقرة .

وسورة النساء تقابل بعد ذلك في سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:٢١] مستأنسًا في ذلك بمشابهتها لمطلع سورة النساء:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ الآية.

وسورة المائدة تفصل في قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [البقرة:٢٧] ، منبها على أن سورة المائدة مبدوءة بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ .

---

(١) المصدر السابق (٩ / ٤٩٢٥).

(٢) المصدر السابق (٩ / ٢٥٨٨). وانظر كلامه عن زمرة " ألم . العنكبوت والروم ولقمان والسجدة " في سورة العنكبوت(٨/ ٤٢٤٠)، وفي نهاية هذه الزمرة في سورة السجدة تحت عنوان " كلمة أخيرة في سورة السجدة وزمرتها "(٨/ ٤٣٧٥).

وتفصل الأنعام في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة الآيتان ٢٨-٢٩] ، وتفصل سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨] ملاحظاً الصلة بين هذه الآية ومقدمة سورة الأعراف، أما سورتا الأنفال والتوبة فإنهما يفصلان في محور واحد من سورة البقرة وهو قوله تعالى:﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ [الآية:٢١٧] وينبه القارئ إلى ملاحظة الصلة بين استفتاح الآية بالسؤال واستهلال سورة الأنفال بالسؤال أيضا⁽¹⁾.

وإنما اعتبر سورة البقرة محوراً لسائر سور القرآن، وما عداها تفصيل لما ورد فيها لأن سورة البقرة جامعة لمقاصد الدين ومجمل أحكامه، مستوعبة لأهداف القرآن ومراميه. وفي ذلك يقول : « وكل قسم من الأقسام يكمل بقيتها، فقسم المفصل يكمل قسم المثاني، وقسما المثاني والمفصل يكملان تفصيل قسم المئين، والأقسام الثلاثة تكمل تفصيل قسم الطوال، ولهذا كله قواعده وأسرار انتظامه، وكل ذلك قد ربط بخيوط إلى سورة البقرة، فكأنها الأصل الذي ينبثق عنه بانتظام فروع أولى، ثم فروع ثانية، ثم فروع ثالثة، ثم فروع رابعة، فكأنها شجرة فيها أربعة وعشرون غصنًا، كل غصن له فروعه وأوراقه وثماره وارتباطاته بسورة البقرة ارتباطًا منتظمًا دقيقًا » ⁽²⁾.

ويوضح سعيد حوّى الصلة بين بناء القرآن على هذا النحو وبناء النفس البشرية فيؤكد أن «كل مجموعة لاحقة تُبنَى على كل ما سبقها من مجموعات،

---

(١) المصدر السابق (٢ / ٦٨٥ ــ ٦٨٦).

(٢) الأساس في التفسير (١٠ / ٥٧٢٨) بتصرف .

وكل سورة تفصل في محور تبنى على التفصيلات السابقة لهذا المحور، بحيث تعمق المعاني وتؤكدها وتكملها في عمليات متلاحقة، يتكامل بها بناء النفس البشرية لتؤدي دورها مع غيرها في سير منضبط إلى الله عز وجل وفي صف واحد نحو تحقيق الأهداف » (١).

وبين أن كل سورة تعمل عملها في تطهير النفوس وجِلاء القلوب من الصدأ الذي ران عليها، وعبر عن ذلك قائلاً: « لقد جاءت سورة البقرة فربت على التقوى من خلال السياق، وجاءت سورة آل عمران لتفصل أساس التقوى ضمن السياق، وجاءت سورة النساء لتفصل في ماهية التقوى ضمن السياق ثم تأتى سور القرآن، وفي كل سورة يأتي جديد، فما إن يبدأ الإنسان يقرأ القرآن حتى يغسل القرآن قلبه؛ إذا أدركت هذه النقطة تكون قد أدركت حكمة من حكم التكرار والتفصيل في القرآن، وتكون قد عرفت سببًا من أسباب كون القرآن على مثل هذا الترتيب» (٢).

وقد ظهر لون من ألوان التفسير عني عناية شديدة بوحدة مواضيع السورة القرآنية، وعمل على إبرازها مقتصرا على الأغراض المتعددة التي تتضمنها وتحديد محورها، دون تفسير السورة آية آية، ومن أفضل النماذج على ذلك كتاب الشيخ الغزالي "نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم".

وقد ذكر – رحمه الله – في مقدمة الكتاب أنه تأسى بالشيخ محمد عبد الله دراز معتبرًا إياه أول من فسر سورة كاملة تفسيرًا موضوعيًا. وقد بين مراده بالتفسير الموضوعي فقال: « والتفسير الموضوعي غير التفسير الموضعي:

---

(١) المصدر السابق (١٠ / ٥٧٢٨).

(٢) المصدر السابق (٢ / ١٢٦٧ ــ ١٢٦٨) بتصرف .

الأخير يتناول الآية أو الطائفة فيشرح الألفاظ والتراكيب والأحكام. أما الأول فهو يتناول السورة كلها، ويحاول رسم "صورة شمسية" لها تتناول أولها وآخرها، وتتعرف على الروابط الخفية التي تشدها كلها، وتجعل أولها تمهيدًا لآخرها وآخرها تصديقًا لأولها »(١).

ويلتحق بهذا النوع كتابات اعتنت ببيان موضوعات كل سورة وأهدافها إجمالاً مع محاولة الربط بينها بإطار كلي(٢)، مثل كتاب "النظم الفني في القرآن" لعبد المتعال الصعيدي، و" إيجاز البيان في سور القرآن " لمحمد علي الصابوني، و"أهداف كل سورة ومقاصدها" لعبد الله شحاته.

أو كتابات اكتفت بدراسة الأغراض المحورية لبعض السور ككتاب "الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية " لرفعت فوزي عبد المطلب، حيث درس فيه سورة مريم، وطه، والأنبياء، والحج، والنور، والشعراء، والقصص، والأحزاب، ويس، والصافات، وص، والزمر، وغافر .

كما ظهرت مجموعة من الدراسات القرآنية التي تفسر سورًا قرآنية معينة وتستحضر وحدة نسقها وتعانق قضاياها الكبرى، ومن أبرزها كتب الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني في تفسير سورة الرعد وسورة فاطر، وكتب د. حسن محمد باجودة مثل "تأملات في سورة المائدة" "تأملات في سورة آل عمران " تأملات في سورة الإسراء" وغيرها... حيث نص على أن هدفها هو

---

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: الأجزاء العشرة الأولى (ص ٥) دار الشروق ط ١٩٩٢، وعلى هذا النحو سار محمد قطب في بعض السور بشكل أوسع في كتابه دراسات قرآنية .

(٢) ومن أوائل الكتب التي سارت على هذا النهج " نظرة العجلان في أغراض القرآن " للشيخ محمد ابن كمال الخطيب، طبع بالمطبعة العصرية دمشق سنة ١٣٦٥هـ ، ولكني لم أقف عليه.

" تبيين مظاهر إعجاز السورة الكريمة، وتبيين الروابط الظاهرة والخفية بين موضوعاتها وآياتها وأجزاء الآية الكريمة الواحدة " (١)، وهذا النمط هو من التفسير التحليلي لا من التفسير الموضوعي.

ويبقى أن أشير إلى أن التفسير الموضوعي ينصرف إذا أطلق إلى «دراسة موضوع من خلال القرآن الكريم وذلك بجمع الآيات المتعلقة به لفظًا أو حكمًا وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية » (٢)، ويدرج فيه طائفة من الكاتبين النمط التفسيري المتقدم الذكر، والذي يقوم على تفسير السورة إجمالاً ويكتفي بعرض مضامينها بشكل يبين التحامها ويلحظ الهدف الذي تلتقي عليه آياتها، ولكنني أوثر- للتمييز - أن أطلق على هذا اللون " التفسير الشمولي للسورة ".

---

(١) تأملات في سورة المائدة (٧).

(٢) مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم (١٦ و٢٧) وينظر : مقدمات في التفسير الموضوعي لمحمد باقر الصدر (١٧) دار التوجيه الإسلامي، ١٩٨٠م.

المبحث الخامس

فوائد وحدة النسق في تفسير السورة القرآنية

إن إدراك وحدة نسق السورة القرآنية والكشف عن المحور الذي تدور عليه جميع مواضيعها وإبراز الروابط التي تربط بين أجزائها من أهم العوامل المساعدة على **تفهم معاني آياتها واستجلاء الدلالات المكنونة في طواياها**.

وقد تنبه الإمام الشاطبي إلى ذلك حيث قرر أنه لا محيص للمتفهم عن استيفاء جميع أجزاء السورة بالنظر باعتبارها كلامًا واحدًا من جهة النظم(١).

كما استشعر البقاعي فائدة النظر الشمولي إلى السورة ومعرفة مقصودها وقرر في كتابه "مصاعد النظر" ثمرة علم مقاصد السور وغايته فقال: «وغايته معرفة الحق من تفسير كل آية من تلك السورة. ومنفعته التبحر في علم التفسير، فإنه يثمر التسهيل له والتيسير. ونوعه التفسير. ورتبته أوله فيشتغل به قبل الشروع فيه، فإنه كالمقدمة له من حيث أنه كالتعريف، لأنه معرفة تفسير كل سورة إجمالاً»(٢).

ومن يتأمل التفاسير التي سارت على منهج لا يلحظ وحدة السورة ويقارن بينها وبين التفاسير التي لاحظتها يرى أثر ذلك بينًا، فتفسير الآيات بناء على معرفة موقعها من مقصود السورة العام يكون أدق وأعمق، فلا تبدو موضوعات السورة أشتاتًا مفرقة وأجزاء مبددة، وإنما تبدو متسقة المعاني ملتحمة المقاصد، كفروع وأغصان متشابكة تتفرع عن جذع واحد. ومن هنا

---

(١) الموافقات (٣ /٣١١).

(٢) مصاعد النظر (١ /١٥٥).

يكون بيان المفسر للموضوعات الجزئية في ضوء الغرض الأساس للسورة، ويوجه تفسيرها بما يجلي الهدف المحوري الذي تعالجه.

أما أخذ السورة آية آية وتفسيرها على أنها منفصلة دون النظر إلى السلك الجامع الذي تنتظم فيه حبات عقدها فإنه يفوت على المفسر إدراك جملة من هدايات القرآن ولطائفه ومظاهر إعجازه، ومن هنا التفت بعض المشتغلين بالتفسير والدراسات القرآنية من المعاصرين إلى ملاحظة هدف السورة واستلهام روحها الخاصة في تفسير أجزائها.

ولعل برهان الدين البقاعي من أوائل من نبه على فائدة ملاحظة ذلك في التفسير حين تحدث عن فوائد علم المناسبات المرتبط بنسق السورة في مقدمة "نظم الدرر" وقال: «وبذلك يوقف على الحق من معاني آيات حار فيها المفسرون لتضييع هذا الباب من غير ارتياب، منها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ [الآيتين:١٣٣-١٤٤]. ومنها قوله تعالى في سورة النساء: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [الآية: ٩٥]، مع قوله عقيبه: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ﴾ [الآيتان:٩٥-٩٦] وقوله تعالى في آخر هود: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الآية:١٠٩]، إلى غير ذلك وقوله تعالى سبحانه في: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء:٨٥]، وقوله تعالى في السجدة: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الآية:١١] وقوله تعالى في يس: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الآية:٣١] مما تراه وينكشف لك غامض معناه»(١). ولا غرو، فالمناسبة هي المصححة لنظم

---

(١) نظم الدرر (١ /١٣ –١٤).

الكلام(١). ومعرفة وجه الصلة بين الآية وسابقاتها، وإدراك موقعها من السياق العام للسورة يهدي إلى الصواب في تفسيرها، ويعين المفسر على ترجيح بعض ما تحتمله الآية من معان إذا كان أليق بالنظم وأنسب للمقصود.

ومن أمثلة ذلك قول محمد عبد الله دراز في دراسته لنسق سورة البقرة : «مضى جمهور المفسرين على أن قوله تعالى:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾(٢)مشار به إلى أقرب الطائفتين في الذكر، وهم المنافقون، ولكن المروي عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم أنه راجع إلى الكفار مطلقًا. وهذا الذي عولنا عليه لأنه أقعد في المعنى وفي النظم... وأما في النظم فلأن تناولها للطائفتين يتم به حسن المقابلة بين الإشارتين في قوله تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى ﴾ وقوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾. ثم به يتم جمال الصنعة في تفريق الأقسام ثم جمعها، ثم تفريقها ثم جمعها. فقد رأيته يفرق الطائفتين في أوصافها الخاصة ثم يجمعها في هذا الوصف المشترك. وستراه يعود إلى تفريقهما في ضرب الأمثال ثم يجمعهما مرة أخرى مع سائر العالم في النداء الآتي : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة:٢١] » (٣) .

كما أن **مراعاة النسق العام للسورة يعطينا معان أخرى للآيات** بشكل يؤكد أن القرآن لا تنقضي عجائبه مع كثرة الرد، فإن نظرت إلى الآية في بنائها اللفظي بقطع النظر عن سياقها استفدت معنى معينًا، وإن امتد نظرك إلى سوابقها ولواحقها القريبة استفدت معنًى آخر، وإن أشرفت على مقصود السورة ونظرت

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١ /٣٤).

(٢) البقرة ، الآية : ١٦ .

(٣) النبأ العظيم (١٦٨ هامش ١)، وانظر كذلك تفسيره للمثل (١٦٨ ــ ١٦٩).

إلى موقع الآية في بنائها الكلي استفدت معنًى آخر، وهذا دليل من دلائل عظمة القرآن واتساع مدلولاته، ومن أمثلة ذلك ما بينه سعيد حَوّى في تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥].

يقول رحمه الله : «...وأما النهي عن إهلاك النفس : فإذا نظرنا إلى النص مجردا كان له معنى . وإذا نظرنا إليه من خلال الآية التي هو فيها أعطانا معنى آخر، وإذا نظرنا إليه أنه جزء من السياق أعطانا معنى جديدًا . وكل هذه المعاني مرادة، وكلها قد ذكرها أئمة التفسير عند شرح الآية، فإذا نظرنا إلى النص مجردًا فهمنا منه أنه نهى عن قتلنا أنفسنا . أي لا تقتلوا أنفسكم بأيديكم، كما يقال أهلك فلان نفسه بيده : إذا تسبب في هلاكها ... »⁽¹⁾.

وإذا نظرنا إلى هذا النهي ووروده بعد الأمر بالإنفاق فهمنا منه أنه نهى عن ترك الإنفاق في سبيل الله؛ لأنه سبب للإهلاك ، ويؤيد ذلك ما أخرجه البخاري عن حذيفة رضي الله عنه في الآية قال : ((نزلت في النفقة))⁽²⁾ .

وأورد أقوالاً أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك وسعيد بن جبير والحسن البصري رحمهم الله تؤيد ذلك، ثم عقبها بقوله: «وإذا نظرنا إلى هذا النهي من خلال وروده بعد آيات القتال فهمنا منه أنه نهى عن ترك الجهاد »، وأورد في ذلك حديثًا لأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه يؤيد ذلك.⁽³⁾ ثم قال: « وقد لاحظنا أن هذه الاتجاهات الثلاثة الرئيسية في

---

(١) الأساس في التفسير (١ / ٤٤٧) بتصرف .

(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير،باب تفسير سورة البقرة، رقم٤٤٠٠ [فتح الباري ج٨/ ٣٣].

(٣) الأساس في التفسير (١ / ٤٤٧) بتصرف.

فهم هذا النص، سببها ملاحظة النص مجردًا، أو السياق القريب، أو السياق العام، وهذا قد يكون أبرز مثال من خلال كلام أئمة التفسير لما حاولنا إبرازه سابقًا من أن هذا القرآن لا تتناهى معانيه، فمن خلال المعنى المجرد ومن خلال السابق القريب والسياق العام والوحدة القرآنية، ومن خلال عبارة النص، ومن خلال إشارة النص، تتولد معان لا تتناهى، وكل يأخذ من كتاب الله على قدر ما قسمه الله له، وهذه المعاني كلها حق ... »(١).

وإلى جانب ذلك يهدي استحضار وحدة نسق السورة إلى كثير من الحكم والدقائق المعنوية واللطائف التربوية التي تجلي هدايات القرآن وتبرز إعجازه، وهذا ما أشار إليه الرازي بقوله: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»(٢).

ومن فوائد معرفة مقصود السورة ولمح بنائها المعنوي العام أنها توقف المتدبر على القوي من المناسبات الجزئية بين آحاد الآيات. فكثيرًا ما كان المفسرون الذين عنوا بذلك يحاولون الربط بين بعض الآيات غافلين عن نظام السورة المعنوي فلا تظهر لهم وجوه قريبة للمناسبة، وقد تنبه البقاعي بفضل قاعدة شيخه المشذالي إلى أن معرفة الغرض الذي سيقت السورة لأجله هو السبيل إلى إدراك وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية(٣)، وأن «من حقق المقصود منها عرف تناسب آيها وقصصها وجميع أجزائها»(٤). بل إنه أكد أن

---

(١) المصدر السابق (١ / ٤٤٨)، ويراجع (٢ / ١١٣٦ ــ ١١٣٨) و(٣ / ١٣٦٧) .

(٢) المصدر السابق (١ /٣٦).

(٣) انظر نظم الدرر (١ /١٧ –١٨).

(٤) مصاعد النظر (١ /١٤٩).

الإجادة في علم المناسبات متوقفة على معرفة مقصود السورة الذي يفيد معرفة مقاصد جميع جملها وأجزائها، «ولذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبةَ علم البيان من النحو»⁽¹⁾.

وقد تفطن دراز إلى أهمية النظر الشمولي إلى مواضيع السورة ووحداتها الصغرى لاكتشاف الروابط الجزئية فقرر – وهو يمهد لبيان نظام معاني سورة البقرة – «أن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه، فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضعية بين كل جزء جزء منه – وهي تلك الصلات المبثوتة في مثاني الآيات ومطلعها ومقاطعها- إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها على وجه يكون معوانًا له على السير في تلك التفاصيل على بينة»⁽²⁾.

والمتتبع لعرض دراز لمعاني سورة البقرة التي جعلها نموذجًا لهذا المنهج يجد بعض الآراء الطريفة التي خالف فيها جمهور المفسرين بناء على مقتضيات نظم السورة ووحدة بنائها المعنوي، ومن أمثلة ذلك قوله في تفسير قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ [البقرة:٢٤٠] : « والجندي في الحرب تشغله – على الأقل – مخافتان : مخافة على نفسه وعلى المجاهدين معه من أخطار الموت أو الهزيمة، ومخافة على أهله من الضياع والعَيْلة لو قتل ... لذلك انساق البيان الكريم

---

(١) نظم الدرر (١ /١٢).

(٢) النبأ العظيم (١٥٦).

يطرد عن قلبه كلتا المخافتين، أما أهله فقد وصى الله للزوجة إذا مات زوجها بأن تمتع حولاً كاملاً في بيته، وكذلك مطلقته سيتقرر لها حق في المتعة لا يُنسى »(١)، فكأنه جعل هذه الآيات موصولة العُرى بشأن الجهاد، وليست انتقالاً كليًا إلى قضايا الأسرة، ومن ثم رأى أن هذه الآية تقرر حقًا غير منسوخ لزوجات المجاهدين، وأن سياق الآيات عند التأمل يوحي بذلك خلافًا لما ذهب إليه معظم العلماء من كونها آية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة:٢٣٤] ، بل إنه خالف بذلك من قال بإحكامها(٢) لكونه خص المتاع بزوجات من قتلوا في الجهاد، وقد عبر عن ذلك قائلاً : « ... وواضح أن كلا القولين مبني على أن آية الحول يسري حكمها على الأزواج عامة... ولكن السياق الحكيم أوحى إلينا هذا المعنى الجديد: وهو أن تربص الحول الكامل كان خصوصية فضلت بها زوجات المجاهدين على زوجات القاعدين، والله أعلم»(٣).

ومع أني أميل إلى القول بإحكام هذه الآية، إلا أنني لا أرى أنها خاصة بالمجاهدين، إذ دلالة السياق ليست من القوة لتخصص عموم الآية، لا سيما وأنها استهلت كالآية الأخرى بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ ﴾ولو كان المراد بها المجاهدين فقط لكان الأوفق أن يكون التعبير: "و الذين قُتِلوا "، والله أعلم.

ومن ثمرات هذا النظر أنه بيّن أنه لا يشترط أن يكون ثمة تناسب بين

---

(١) المصدر السابق (٢٠٦).

(٢) من العلماء القائلين بإحكامها علم الدين السخاوي في جمال القراء (١ / ٢٦٦) والحرالي كما نقل عنه البقاعي (٣ / ٣٧٩ ــ ٣٨٢).

(٣) النبأ العظيم (هامش١ ص ٢٠٦). وقد استفاد من هذا المسلك في مواضع أخرى (١٦٨و١٦٩).

كل آية وقرينتها، بل إن من منهج النظم القرآني أنه قد يتم طائفة من المعاني ثم ينتقل إلى طائفة أخرى تقابلها، فيكون حسن التجاور بين الطائفتين مستدعيًا لحسن المقابلة بين الأوائل من كل منهما أو بين الأواخر كذلك، لا بين الأول من هذه والآخر من تلك (١).

فالسورة القرآنية بمثابة حلقات مترابطة مشمولة بحلقة أكبر منها، وهي داخلة فيها متعلقة بها، ولا يتحتم أن تكون كل حلقة موجودة على مسار خط السورة مرتبطة بالحلقة التي قبلها مباشرة، بل قد تكون متصلة بالحلقة الكبرى التي تمثل مقصود السورة الرئيس، أو متصلة بحلقة دونها قد سبقت وليست هي الحلقة المباشرة في تسلسل رصف الحلقات(٢).

ومن فوائد الاستبصار بمقصود السورة القرآنية استجلاء: أسرار تكرار القصص واختلاف الآيات المتشابهة في التعبير. وقد نبه البقاعي إلى ذلك فقال: «وبه يتبين لك أسرار القصص المكررات، وأن كل سورة أعيدت فيها قصة فلمعنى ادعي في تلك السورة استدل عليه بتلك القصة غير المعنى الذي سيقت به في السورة السابقة، ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض، وتغيرت النظوم بالتأخير والتقديم والإيجاز والتطويل، مع أنها لا يخالف شيء من ذلك أصل المعنى الذي تكونت به القصة»(٣).

فالقصة في كتاب الله إنما تساق لتفيد عبرة من العبر، ولكل قصة عبر

---

(١) المصدر السابق (١٦٢).

(٢) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (ص ٢٨). دار القلم. دمشق. ط٢ ١٩٨٩م.

(٣) نظم الدرر (١ / ١٤).

ودروس، ودلالات كثيرة، والقرآن يورد في كل موضع مشاهد من القصة تناسب الموضع الذي جاءت فيه، ويشهد للمقصود الذي تهدف إليه سوابقها ولواحقها من آيات السورة.

فكل سورة لها هدف خاص وشخصية متميزة، وجميع ما تشمله من معان جزئية ومحاور صغرى تتجه لخدمة هدف السورة وتتأثر في صياغتها التعبيرية بروحها،ومن ثم فإن أي نص من نصوص القرآن - ولو بدا متشابهًا- يصطبغ بجو السورة التي يرد فيها وتكون له حينها ملامح خاصة تميزه عن نظائره.

وقد ضرب البقاعي مثالاً لذلك فقال: « ولأجل اختلاف مقاصد السور تتغير نظوم القصص وألفاظها بحسب الأسلوب المفيد للدلالة على ذلك المقصد. مثاله : مقصود سورة آل عمران التوحيد، ومقصود سورة مريم عليها السلام شمول الرحمة. فبدئت آل عمران بالتوحيد، وختمت بما بني عليه من الصبر وما معه مما أعظمه التقوى. وكرر ذكر الاسم الأعظم الدال على الذات الجامع لجميع الصفات فيها تكريرًا لم يكرر في مريم، فقال في قصة زكريا عليه السلام: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٤٠]. وقال في مريم :﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم:٩]. وقال في آل عمران في قصة مريم عليها السلام :﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ﴾ [آل عمران:٤٥] إلى أن قال:﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٤٧] . وفي مريم : ﴿ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا (١٨) قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا (١٩) قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ ﴾[مريم:١٨-٢١]. وغير ذلك بعد أن افتتح السورة بذكر

الرحمة لعبد من خُلَّصِ عباده، وختمها بأن كل من كان على نهجه في الخضوع لله يجعل له ودًا، وأنه سبحانه يسر هذا الذكر بلسان أحسن الناس خُلُقًا وخلْقًا، وأجملهم كلامًا وأحلاهم نطقًا. وكرر الوصف بالرحمن وما يقرب منه من صفات الإحسان من الأسماء الحسنى في أثناء السورة تكريرًا يلائم مقصودها ويثبت قاعدها وعمودها »⁽¹⁾.

ولكون القصص المكررة في القرآن مدخلاً يلجه الطاعنون في إعجازه فإن المفسرين المعاصرين التفتوا إلى هذا الملحظ، واستثمروا وحدة نسق السورة في توجيه تلك القصص ومنهم: سيد قطب، ومحمد عزة دروزة، وسعيد حوى وغيرهم، ويبدو نضج الفكرة عند هذا الأخير بشكل كبير؛ إذ لا ينفك في كل موضع وردت فيه قصة مكررة عن بيان كونها جاءت على ذلك النحو لتنسجم مع روح السورة ومقصودها، فيقول مثلاً: « إن قصة آدم وردت في سورة البقرة وترد هنا (أي في الأعراف) مرة ثانية، وقصة بني إسرائيل وردت في سورة البقرة وترد هنا مرة ثانية، ولكنهما تردان ضمن السياق الخاص لسورة الأعراف، وبما يخدم هذا السياق. وهناك وردتا ضمن السياق الخاص لسورة البقرة بما يخدم ذلك ...فمثلاً قصة آدم في سورة البقرة تخدم سياقها الخاص وهو الأمر ﴿**اعبدوا**﴾، فهي نموذج الانحراف عن الأمر وما يترتب عليه، وكيف ينبغي أن يفعل الإنسان ليتخلص من مخالفته. أما قصة آدم في سورة الأعراف فهي تخدم موضوع الاتباع وما يترتب عليه، والكفر وما يترتب عليه»⁽²⁾.

---

(١) مصاعد النظر (١ /١٥٢ – ١٥٣).

(٢) الأساس في التفسير (٤ /١٨٨١).

ومن فوائد مراعاة نسق السورة وطابعها الخاص الوقوف على الأسرار البيانية المنطوية تحت الفروق التعبيرية في السور القرآنية؛ ذلك أن الكلمات ومفردات التركيب تتجه برمتها لخدمة مقصود السورة وتتأثر في صياغتها وسبكها بروحها، ومن ثم تجد المعنى الواحد يرد في أكثر من سورة ولكن يعبر عنه في كل واحدة منها بما يلائم سياقها ويناسب مقصودها وجوّها الخاص ، ومن هنا كان سر اختلاف الآيات المتشابهة في ألفاظها واختصاص كل واحدة بموضعها(١) .

ومن أمثلة ذلك توجيه أبي جعفر بن الزبير للفرق التعبيري بين قوله تعالى :﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء:١٤٩] وقوله تعالى : ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٤] حيث يعزو التعبير بإبداء الخير في آية سورة النساء إلى مناسبة الطابع العام الذي يغلب عليها، فقال: « والجواب عن الأول أن قوله مقصود به خصوص طُرق الخير وعمل البر، جريًا على ما دارت عليه سورة النساء وتردد فيها من إصلاح ذات البين والندب إلى العفو والتجاوز عن السيئات... ومن هنا لم يتعرض فيها لأحكام الطلاق، وإن كانت السورة مبنية على أحكام النساء، لكن خص من ذلك ما فيه التألُّف والإصلاح وما يرجع إلى ذلك، ولم يرد فيها من أحكام الطلاق إلا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ فذكر هذا القدر عند استدعاء معنى الكلام وتمام المقصود به إليه

---

(١) ينظر كتاب المتشابه اللفظي في القرآن ومسالك توجيهه عند أبي جعفر بن الزبير الغرناطي للباحث (١٠٢ ــ ١١٠).

بأوجز لفظ، وبما يؤنس الفريقين، و لم يذكر فيها اللعان ولا الظهار ولا الخلع ولا طلاق الثلاث، بل ذكر فيها ما استصحب العشرة إلى التوارث، فلما كان مبنى السورة على هذا ناسب طرف الخير غير مشار إلى ضده إلا بالعفو كما وقع بالمكلف فيه فقال تعالى: ﴿ إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ ﴾ فنوسب بهذا الخصوص أي خصوص ما تكرر في السورة بما ذكر من العفو وما يحرزه..» (١) .

وثمة فوائد أخرى عامة لدراسة نسق السورة القرآنية كتأكيد إعجاز القرآن في نظم آيه وكلمه، ودحض شبهة افتراق القرآن المكي والمدني، إذ نجد – كما تقدم لنا – آيات مدنية في سور مكية والعكس دون أن يظهر في نسيج معانيها أي تنافر أو اختلال(٢). غير أن أبرز ثمراتها هو التأسيس لنمط تفسيري يقرب للناس مقاصد القرآن وهداياته.

---

(١) ملاك التأويل (١/ ٣٦١ ــ ٣٦٣) .

(٢) انظر الأساس في التفسير (١ /٢٦ –٢٧).

المبحث السادس

مسالك الكشف عن وحدة نسق السورة القرآنية

إن تجلية بناء السورة القرآنية وإبراز اتساق عناصرها وتلاحم أجزائها ينطلق من الكشف عن مقصود السورة أو المحور الفكري الذي تدور عليه سائر تفاريع معانيها، ولا مرية في أنه أمر دقيق يحتاج إلى إجالة النظر في أجزاء السورة وإمعان الفكر في تدبر معانيها المتشعبة مع القدرة الفائقة على النظر الشمولي إلى هيكلها العام والتمييز بين الأغراض الرئيسة والمعاني الواردة على سبيل الاستطراد والتتميم.

ومن المسالك التي تعين على إبراز الغرض المحوري في السورة :

١- تدبر فواتح السور وخواتيمها: ففاتحة السورة تشير إلى أهم القضايا التي ستعالجها الآيات بعد ذلك، وتأتي خاتمة السورة لتعود للتذكير بإحدى تلك القضايا وتأكيدها وترسيخها، ولذلك اهتم العلماء بتناسب فواتح السور وخواتمها، حتى إن السيوطي ألف في ذلك كتابا سماه"مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع"(١). كما اعتنوا ببيان مناسبة مطلع السورة للموضوع الذي يغلب على آياتها تحت مسمى براعة الاستهلال(٢)، ولا ينبغي في الحقيقة أن نقف عند هذا الحد، بل لا بد من استثمارها في كشف الغرض المحوري الذي تلتقي فيه جميع مواضيع السورة. وقد تنبه دراز إلى موقع مطلع

---

(١) صدر بتحقيق د. محمد بن عمر بن سالم بازمول، المكتبة المكية ط ١، مكة المكرمة، ١٤٢٣ — ٢٠٠٢ م.

(٢) انظر كتاب "براعة الاستهلال في القصائد والسور " لمحمد بدري عبد الجليل.

السورة وخواتمها من بناء السورة فقال: « ولقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أن هناك تخطيطًا حقيقيًا واضحًا محددًا، يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة، فتوضح الآيات الافتتاحية الأولى من السورة الموضوع الذي ستعالجه في خطوطها الرئيسية، ثم يتبع ذلك التدرج في عرض الموضوع بنظام لا يتدخل فيه جزء مع جزء آخر، وإنما يحتل كل جزء المكان المناسب له في جملة السورة، وأخيرًا تأتي الخاتمة التي تقابل الديباجة»(١).

ومن أمثلة دلالة فواتح السورة وخواتمها على غرضها المحوري ما بينه عبد الرحمن الميداني في حديثه عن سورة الرعد حيث قال: « وموضوع سورة الرعد تجده في الآية الأولى منها:﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، وتتضمن هذه الآية الإشعار بالكلام على عناصر ثلاثة، وهي:(١)رسالة الحق(٢)رسول الصدق(٣)مُرسَل إليهم أكثرهم لا يؤمنون.

أما الكلام على الرسالة فيستدعي إقامة الدليل على أسسها، ومن أجل ذلك جاءت مجموعة من الآيات في السورة لإقامة الأدلة على وجود الله عز وجل وعظيم صفاته. وأما الكلام على الرسول والمرسل إليهم فيستدعي بيان حال الصراع الذي تم بينه وبينهم، ويتضمن ذلك عرض أقوالهم وحججهم في تكذيبهم بالرسول، وكيف عالج الرسول صلى الله عليه وسلم إصلاحهم ضمن التعليمات والبيانات الربانية التي أنزلت عليه،كما يتضمن عرض تربية الله لرسوله أمام ما لاقى من المكذبين»(٢).

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم (١١٩)، دار القلم، الكويت.

(٢) قواعد التدبر الأمثل (٣٢).

ويوضح سعيد حوى في تفسيره لسورة يونس المناسبة بين مقدمة السورة ومضمونها فيقول : «تبدأ السورة بآية تدل على مضمون السورة وهي ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ فالآية الأولى في السورة تذكر حكمة الكتاب، وذلك يؤكد أنه لا ريب فيه، وأنه هدى يجب أن يهتدي به الناس، فهذه الآية التي هي مقدمة السورة تشير إلى مضمونها، كما أنها في محلها تحقق ما يسمى في علم البلاغة (ببراعة الاستهلال) على أعظمه وأروعه،ولله ولكتابه المثل الأعلى، وتنزه كتابه وكلامه أن يشبه كلام البشر» (١) .

ويبين سيد قطب في الظلال الصلة بين مطلع سورة يونس وخاتمتها فيقول: « والترابط في سياق السورة يوحد بين مطلعها وختامها، فيجئ في المطلع قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ① أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾[يونس:١-٢].ويجئ في الختام ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [يونس:١٠٩]... فالحديث عن قضية الوحي هو المطلع وهو الختام، كما أنه هو الموضوع المتصل الملتحم بين المطلع والختام» (٢).

وفي تفسير سورة القصص يستكشف سعيد حوى الصلة بين مقدمة السورة وخاتمتها فيقول تحت عنوان (كلمة في السياق): « نلاحظ أنه قد ورد في القسم الأول من السورة على لسان موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ

---

(١) الأساس في التفسير (٥ / ٢٤١٦) .

(٢) في ظلال القرآن (٣ / ١٧٤٥) وما بعدها، وينظر كذلك الأساس في التفسير (١٠ / ٦٠٠٩ ــ ٦٠١٠).

عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص:١٧] وها هنا يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول :﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [القصص:٨٦] وهذا يشير إلى أن مقاصد السورة الرئيسية التربية على هذا المعنى»⁽¹⁾ .

ومن هذه الأمثلة يتبين أن مطلع السورة يأتي ليعين على معرفة هدف السورة والقضايا التي ستعالجها، وتتوزع مقاطع السورة وفق الخطوط التي رسمتها بدايتها، ثم تأتي الخاتمة لتساعد على توضيح تلك المقاصد في نفس القارئ المتدبر وتذكيره بها بعد أن جال في رحاب السورة ومعانيها المتنوعة.

٢- تقسيم السورة إلى أقسام حسب مضمونها: فالسورة تتكون من جملة من الآيات، وهي سوى المفصل متعددة الموضوعات، ويتحتم على المتدبر ألا يشتت نظره مع تفاريعها وتشعباتها، بل عليه أن يقسم السورة إلى مقاطع بحيث يكون كل مقطع متكونًا من مجموعة من الآيات التي تدور حول موضوع واحد، ثم يحاول البحث عن المواضيع التي تشمل جملة من تلك المقاطع مميزًا بين ما هو محوري فيها وما هو وارد على سبيل التكميل والتفريع، لتتحصل لديه أقسام السورة التي تمثل القضايا الكبرى التي تعالجها، ثم يحاول اقتناص الرابط المعنوي الدقيق الذي يجمع بينها ويكون بمثابة الجذع الذي تتفرع عنه سائر معاني آيات السورة. وقد يكتفي ببيان تلك القضايا والربط بينها في شكل يبين التحام أجزاء السورة.

ومن أحسن من سار على هذه الطريقة سعيد حوى في تفسيره لسورة البقرة حيث قال : «رأينا أن سورة البقرة تتألف من مقدمة وثلاثة أقسام وخاتمة.

---

(١) الأساس في التفسير (٧ / ٤١٢٠).

أما المقدمة فهي الآيات العشرون الأولى. وفيها أقسام الناس حسب التقسيم الرباني الإسلامي: متقين وكافرين ومنافقين، وصفة كل منهم. وأما القسم الأول فمن الآية (٢١) إلى نهاية الآية (١٦٧)، وفيها دعوة عامة إلى الناس جميعًا كي يسلكوا الطريق الموصل إلى تقوى الله، ويتركوا كل ما ينافي ذلك.

وأما القسم الثاني فمن الآية (١٦٨) إلى نهاية الآية (٢٠٧)،وهو استمرار للقسم الأول في كونه دلالة على التقوى وتفصيلاً في شأنها وتبيانًا لأركانها وشروطها وما يدخل فيها، وموقف الناس منها، وغير ذلك من معان.

وأما القسم الثالث فمن الآية (٢٠٨) إلى نهاية الآية (٢٨٤) وفيه دعوة إلى الدخول في الإسلام كله،وتبيان لكثير من شرائع الإسلام وتبيان ما يلزم لإقامة الإسلام كله.وفيه التوجيهات الرئيسية في قضايا المال،وفيه الملامح الرئيسية لنظام الاقتصاد في الإسلام النظام القائم على الصدقات والنظام غير الربوي، والنظام القائم على التعامل المنضبط مع تقديم المالكية لله.

ثم تأتي الخاتمة التي يدخل فيها هذا كله؛ إذ مرجع هذا كله إلى الإيمان والسمع والطاعة والتوبة من التقصير، وهذا الذي عرضته الآية الأولى في الخاتمة، ومرجع ما مر كله يعود إلى التكليف المستطاع للإنسان،وأن هذا التكليف بسببه يكون الجزاء والعقاب، وهذا الذي ذكرته الآية الثانية من الخاتمة. وهذا والذي قبله لا يتأتى إلا بعبودية كاملة وتوفيق من الله ، وهذا الذي علمتنا إياه الدعوات» (١).

ويمكن الاستئناس في الوقوف على أجزاء السورة ومقاطعها بما تنبه إليه سعيد حوى في بعض السور القرآنية من تكرر كلمة معينة في مستهل جملة من

---

(١) الأساس في التفسير (١/ ٦٧٣ – ٦٧٤).

الآيات في مواضع متفرقة من السورة، ومن أمثلة ذلك قوله في تفسير سورة الأنعام: «من الملاحظ أن الآية الأولى في سورة الأنعام مبدوءة بـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ ثم تأتي الآية الثانية مبدوءة بقوله تعالى ﴿هُوَ﴾، الآية الثالثة المبدوءة بقوله تعالى ﴿وَهُوَ﴾ ثم تتكرر كلمة ﴿وَهُوَ﴾ في السورة كثيراً كما رأينا، فكأنها معطوفة على ﴿هُوَ﴾ الأولى في السورة، وإن من العلامات التي تحدد بدايات ونهايات بعض المقاطع في السورة أن نرى ﴿وَهُوَ﴾، فقد اعتدنا في السياق القرآني أن نرى مقطعاً تشبه بدايته نهايته ، ولذلك نرى أن آخر مقطع في السورة بدايته ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ﴾[الأنعام:١٤١]، فأول آية فيه مبدوءة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ﴾ وآخر آية فيه مبدوءة بقوله تعالى ﴿وَهُوَ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام:١٦٥](١). وقد بيّن سعيد حوى نفسه أن هذا الأمر ليس مطردًا، وأن العمدة في استكشاف مقاطع السورة هو معاني آياتها فقال : " وقد نرى مقاطع ليست مبدوءة بمثل هذا ولا مختومة بمثله، وقد نرى مقاطع مبدوءة بذلك وليست مختومة به، ولقد جرينا على أن نعتمد مثل هذه العلامات حيث وجدت وساعد المعنى في تحديد بداية المقطع أو نهايته، ولكن الشيء الأكثر تحديدًا والذي يجعلنا نحدد به المقطع أو القسم بشكل دائم بداية ونهاية هو المعنى، وسنرى ذلك واضحًا في السورة » (٢).

٣- معرفة الفترة الزمنية التي نزلت فيها معظم آيات السورة: ومن خلال ذلك يمكن التعرف على هدف السورة العام أو أغراضها الكبرى التي

---

(١) الأساس في التفسير (٣ / ١٥٦٧).

(٢) الأساس في التفسير (٣ / ١٥٦٧).

تدور عليها.

فمن المعلوم أن السور المكية عرضت أسس العقيدة الإسلامية،وقد توخت تقرير أربع قضايا كبرى : ١- الإيمان بالله وحده. ٢- الإيمان بالبعث بعد الموت. ٣- الإيمان بالرسالات السماوية. ٤- الدعوة إلى أمهات الأخلاق. فلا يخلو الأمر من أن يكون من أهدافها هذه القضايا الأربعة مجتمعة أو منفردة.

أما السور المدنية فهي تتوخى بناء المجتمع الإسلامي على أسس الإيمان والطاعة، وتفصيل التشريع في شؤون الحياة كافة،وحماية الأمة من الأخطار الداخلية والخارجية بفضح اليهود والمنافقين ومحاورة أهل الكتاب المجادلين، ولا تخلو سورة مدنية من هذين المقصدين (١). ومن هنا يمكن للباحث أن يستدل على مقصود السورة من خلال معرفة زمن نزولها وملاحظة أهداف القسم الذي تنتمي إليه من السور في مجمل آياتها.

وقد مر معنا كيف أن الشاطبي اعتبر بكون سورة "المؤمنين" مكية، وتوصل بعد استعراض جملة من آياتها إلى أن القضية الغالبة على نسقها هي ذكر إنكار الكفار للنبوة.كما ذكر أن سورة الأنعام نزلت في الفترة المكية مبيّنة لقواعد العقائد وأصول الدين(٢)، وأنها جاءت مقررة للحق ومنكرة على من كفر بالله واخترع من تلقاء نفسه ما لا سلطان له عليه وصد عن سبيله(٣).

---

(١) انظر مباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم (٤٢ – ٤٣) دار القلم، دمشق، ط ١، ١٩٨٩م.

(٢) الموافقات (ج ٣ / ٣٠٤) .

(٣) المصدر السابق (ج ٣ / ٢٦٩).

غير أنه لا يلزم أن يكون الغرض المحوري لكل سورة موافقًا لمواضيع القسم الذي يندرج فيه من مكي أو مدني، فقد يكون مقصود السورة عامًا بحيث يشمل هذه الأغراض التي تغلب على أقسامها. فسورة آل عمران مدنية، ومع ذلك فإن مقصدها العام هو ترسيخ فكرة التوحيد⁽¹⁾، أو معركة لا إله إلا الله، كما عبر عنه محمد قطب⁽٢⁾.

٤- الاستئناس باسم السورة أو أسمائها التي جاءت في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: وأول من جعل أسماء السور معلمًا يهتدى به إلى معرفة مقصود السورة هو الإمام البقاعي، فقد قال في مطلع تفسيره للفاتحة بعد ما ذكر قاعدة شيخه المشَذَّالي: «وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل الكتاب أن اسم كل سورة مترجمٌ عن مقصودها؛ لأن اسمَ كل شيء تُظهِر المناسبةُ بينه وبين مسماه عنوانَهُ الدالَّ إجمالاً على تفصيل ما فيه، وذلك هو الذي أنبأ به آدم عليه الصلاة والسلام عند العرض على الملائكة عليهم الصلاة والسلام. ومقصود كل سورة هاد إلى تناسبها، فأذكر المقصود من كل سورة، وأُطَبِّق بينه وبين اسمها...»⁽٣⁾.

ومن أمثلة تطبيقه بين مقصود السورة واسمها قوله في سورة آل عمران: « والدليل على أن مقصودها التوحيد تسميتها بآل عمران؛ فإنه لم يعرب عن هذا المقصد في السورة ما أعرب عنه ما ساقه سبحانه فيها من أخبارهم بما فيها من الأدلة على القدرة التامة الموجبة للتوحيد الذي ليس في درج الإيمان أعلى

---

(١) وهذا ما أشار إليه البقاعي في مصاعد النظر (٢/٦٧-٦٨)، وسيد قطب في الظلال (١/ ٣٥٧).

(٢) دراسات قرآنية (ص: ٢٥١ –٢٥٣).

(٣) نظم الدرر (١ - ١٨ /١٩).

منه...»⁽¹⁾، ومن ذلك أيضا قوله في سورة النساء: «ولما كان مقصودها الاجتماع على ما دعت إليه السورتان قبلها من التوحيد، وكان السبب الأعظم في الاجتماع والتواصل عادة الأرحام العاطفة التي مدارها النساء، فسميت سورة النساء لذلك؛ ولأن بالاتقاء فيهن تتحقق العفة والعدل الذي لبابه التوحيد»⁽²⁾.

وهذا المسلك طريق بديع في استكشاف مقصود السورة ، غير أن تطبيق البقاعي له على جميع السور لا يخلو في بعضها من شيء من التكلف، فهو في كثير من الأحيان لا يستهدي باسم السورة لمعرفة مقصودها، وإنما يلتمس وجه المناسبة بينهما بعد أن يتوصل إليه.

ومن جهة أخرى فإن كثيرًا من السور لها عدة أسماء، جملة منها من تسمية الصحابة والتابعين. وهذه الأسماء ليست كالعناوين التي تدل على مضمن مسماها بشكل إجمالي، وإنما جرت على عادة العرب في أخذ الأسماء.

وقد بين ذلك أبو جعفر بن الزبير حين قال: « والعرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في المسمى من خلق أو صفة تخصه أو تكون فيه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى. ويسمون الجملة من الكلام والقصيدة الطويلة من الشعر بما هو أشهر فيها أو بمطلعها إلى أشباه هذا، وعلى هذا جرت أسماء سور الكتاب العزيز كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لغريب قصة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة في أمرها، وتسمية سورة الأعراف بالأعراف لما لم يرد ذكر الأعراف في غيرها، وتسمية

---

(١) مصاعد النظر (٢/ ٦٧ – ٦٨) .

(٢) مصاعد النظر (٢ / ٨٨ – ٨٩).

سورة النساء بهذا الاسم لما تردد فيها وكثر من أحكام النساء، وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها»(١).

ولذلك أرى أن يكون الاعتماد على الأسماء المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم، لأن الأسماء التوقيفية لا بد أن تكون منطوية على معان ترمي إليها، غير أن الاسم قد لا تظهر دلالته على مقصود السورة العام بجلاء،إلا إذا أجال المتدبره نظره في السورة وضم إلى دلالة الاسم ما توصل إليه عن طريق المسالك الآنفة الذكر.

ومن الأمثلة الجيدة على هذا المسلك ما قام به الدكتور مصطفى مسلم في دراسته لسورة الكهف كنموذج على التفسير الإجمالي الذي يلحظ الغرض المحوري للسورة (٢)، فقد لاحظ أن هذه السورة انفردت بأربع قصص لم تتكرر في سور أخرى، وهي قصة أهل الكهف، وقصة صاحب الجنتين، وقصة موسى عليه السلام مع الخضر، وقصة ذي القرنين، وقد جاءت تسمية هذه السورة بالكهف في أحاديث مرفوعة، منها قوله عليه الصلاة والسلام : ((**مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ، عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ**)) (٣). وحين تأمل في القصص الأربعة وجدها تشترك في بيان أسباب الفتن الكبرى في الحياة الدنيا، وهي: فتنة السلطان، والمال، والعلم، والأسباب المادية . ومن ثم استخلص أن السورة جاءت لتلقي أضواء كاشفة على هذه الفتن، وتكشف حقيقتها وتظهر

---

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل (١/ ١٧٤ـ ١٧٥) تحقيق : سعد الفلاح، دار الغرب الإسلامي. ط ١. ١٩٨٣م.

(٢) وهو يعتبره أحد أنواع التفسير الموضوعي، ولا مشاحة في الاصطلاح.

(٣) صحيح مسلم (٦ / ٧٧ رقم ١٨٣٣).

حقارة شأنها، وتعطي المؤمن الموازين التي يميز بها بين الحق والأباطيل ، وبذلك تكون قراءة هذه السورة عصمةً من جميع الفتن، وفي مقدمتها فتنة المسيح الدجال .

ثم تأمل في علة تسمية السورة باسم الكهف واستنبط وجهَ المناسبةِ بين اسم السورة وموضوعاتِها، فرأى أن اسم الكهف قد اختيرنظرًا إلى المكان الذي لجأ إليه الفتية لحمايتهم من الفتنة: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ [الكهف:١٦] ومن تدبر موضوعات السورة واعتبر بقصصها كانت له كالكهف الحصين الذي يؤوي من جميع الفتن، وإذا كان الكهف الذي لجأ إليه الفتية قد اكتنفته رعاية الله، فحفظهم الله به من بطش المشركين ، فإن الكهف الذي يأوي إليه قارئ هذه السورة كهف معنوي من عنايةِ الله –سبحانه– وحفظِه وسترِه، فلا تؤثر فيه الفتنُ المعروضةُ على قلبه ولو كانت مِثل قِطَعِ الليل المظلم⁽¹⁾ .

و يبقى – في خاتمة المطاف – ما توصل إليه المتأمل بعد طول تدبر في السورة، واستيفاءٍ لطرق كشف غرضها المحوري أمرًا اجتهاديًا لا يمكن القطع به، ولكل باحث أن يتدبر السور القرآنية ويتفكر في تناسق آياتها وترابطها، ويستخرج مقاصدها الكلية ما دام قد استفرغ وسعه واستدل لما أفضاه إليه تأمله، ولا ضير في الاختلاف في هذا، فذلك في نفسه مظهر من مظاهر ثراء القرآن وكرم عطائه .

---

(١) مباحث في التفسير الموضوعي (١٧٤).

الخاتمة

لقد صار الاستبصار بنسق السورة القرآنية وملاحظة وحدة موضوعاتها في التفسير أمرًا ضروريًا لاستجلاء هدايات القرآن وتفجير مكنوناته. وفي سبيل ذلك حاولت أن أبين ما يلي:

١- ظاهرة التناسق الموضوعي خصيصة من خصائص السور القرآنية، وما من سورة إلا ولها هدف محوري تتجه إليه جميع موضوعاتها، وهو منها بمنزلة الروح من الجسد، ولو تأمل الإنسان لوجد أن بين القرآن الكريم والكون العظيم توافقًا بديعًا، فكما أنك لا ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فلن تجد في كلامه أي اختلاف أو تهافت، وكما أن عناصر الكون متكاملة في تحقيق أداء ما خلقت من أجله، فكذلك آيات القرآن وسوره متكاملة في إبانة الرسالات التي تتضمنها، وكما أن الجسد الواحد تتكامل أعضاؤه وتتساند للقيام بوظائفها، فآيات السورة الواحدة تتضافر في مسار واحد لتحقيق مقاصدها. وكما أن في كل جسد حي روحًا تسري فيه لا تدرك إلا بآثارها، ففي كل سورة روح – خفية – تسري في أجزائها ولا تعرف إلا بتدبرها.

٢- إن علمي "المناسبات" و"مقاصد السور" اللذان أبدعهما أئمة التفسير هما الأساس الذي ينبغي أن يرجع إليه الكاتبون الذين يعتمدون النمط التفسيري الذي يستلهم الغرض المحوري للسورة، غير أنه لا ينبغي الوقوف عند جهود العلماء المتقدمين في هذا المجال، بل يجب السير به قدما نحو تفهيم القرآن للناس وتبليغهم مقاصدَه على نحو مقبول قريب من أفهامهم.

ومن ثم لا بد من تخليص المناسبات بين الآي من الاصطلاحات البلاغية التي تخص طرائق الانتقال وأساليب الربط بين الموضوعات المختلفة، كما يجب استجلاؤها في ضوء مقصود السورة العام لا بمعزل عنه.

ومن جهة أخرى ينبغي تصحيح تصور الروابط القائمة بين آيات السورة، فلا يتوهم أنه يجب أن تكون لكل آية علاقة معنوية واضحة بسابقتها، وأن كل معنى يلزم أن يفضي إلى ما بعده،كالحلقات المتسلسلة المستقيمة. وإنما تكون السورة كحلقة كبيرة ترتبط بها بعض الحلقات، وتكون مناسبة كل مجموعة منها للأخرى من جهة ارتباطها بالأصل لا من جهة تتاليها في الترتيب.

٣- البحث عن الغرض المحوري التي تدور في فلكه موضوعات السورة يسير على الخطوات التالية:

- تحديد الفترة الزمنية التي نزلت فيها السورة والطابع الذي يغلب عليها : المكي أو المدني، وتتبع أسباب نزول جملة من آياتها.

- تدبر فواتح السورة وخواتيمها،والتماس ما تضمنته من معان في سائر أجزاء السورة وذلك بتتبع جميع آياتها.

- استعراض أجزاء السورة وتقسيم آياتها إلى مقاطع وأقسام حسب المعاني الجزئية والمحاور الصغرى التي تناولتها.

- التمييز بين الموضوعات الرئيسة والمعاني التي انجر إليها السياق لداع من الدواعي كالتي وردت على سبيل التتميم أو التفريع أو التنظير أو غيرها.

- الاستئناس بما ورد في بعض التفاسير من مناسبات تربط بين بعض مقاطع السورة.

- محاولة اقتناص الروابط المعنوية التي تصل بين المعاني الجزئية للخلوص إلى أهم القضايا التي تعالجها السورة. ومن ثم اكتشاف الجذع المشترك التي تتفرع عنه. ويبقى أن التعبير عنه قد يكون عامًا بحيث يستطيع شمول سائر تلك الموضوعات، وقد يكتفي بعرض تلك القضايا وبيان التحامها.

٤- إن ملاحظة وحدة بناء موضوعات السور القرآنية هو المصباح الذي يستضيء به المفسر المعاصر للإفادة مما تتضمنه تفاسير الأئمة المتقدمين من الروايات المأثورة والأقوال المختلفة، والتفصيلات الإعرابية والدقائق البلاغية والأحكام الفقهية والمسائل العقدية لينتقي منها ما يوافق مقصود السورة ويأخذ بيد المسلم نحو فهم مراد الله تعالى وملامسة هداياته في كلامه. وهذا لا يعني بحال إهمال كتب التفسير المتقدمة ومناهجها المتعددة أو إغفال ما تضمنته من ثروة قرآنية عظيمة، فهي بأجمعها مناهل عذبة للشاربين على اختلاف أصنافهم ومطالبهم .

٥- يمكن الإفادة من الوقوف على الغرض المحوري للسورة في شكلين من أشكال التفسير:

أ- التفسير الشمولي للسورة بعرض قضاياها الكبرى وبيان المعاني الإجمالية لمقاطعها والربط بينها وتجلية تعانقها، لتحقيق مقصود السورة العام.

ب- التفسير التحليلي لسورة أو عدة سور من القرآن الكريم بحيث يلحظ فيه غرضها المحوري ويستصحب من مطلعها إلى خاتمتها آية آية، مع

بيان المعاني التي تدور عليها مقاطعها والربط بينها واستكناه المناسبات الموضعية بين الآيات في ضوء بناء السورة الموضوعي. مع تجنب طمس معالم السورة بحشر التفصيلات القصصية والتاريخية والبلاغية التي تبعد القارئ عن جو السورة الخاص، والاقتصار في تحليل المعاني على ما يخدم مقصودها العام.

هذا وإذا كان مفهوم وحدة النسق في السورة القرآنية متقبلاً عند أكثر الباحثين وحاضرًا في كثير من الدراسات القرآنية، فإن الاستبصار بالنسق القرآني العام الذي يشمل مجموع سور القرآن الكريم ما زال غامضًا يحتاج إلى مزيد من الدرس والبحث، ونرجو من الله تعالى التوفيق لخوض غماره في مستقبل الأيام.

لائحة المصادر والمراجع

١-**ابن برجان والتفسير الصوفي**، محمادي بن عبد السلام الخياطي، أطروحة دكتوراه بدار الحديث الحسنية.

٢-**أبو الحسن الحرالي المراكشي، أثره ومنهجه في التفسير**،محمادي الخياطي، رسالة دبلوم الدراسات العليا بدار الحديث الحسنية.

٣-**الإتقان في علوم القرآن**،جلال الدين السيوطي،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان د.ت.

٤-آراء **المستشرقين حول القرآن الكريم**، عمر إبراهيم رضوان دار طيبة،ط ١، ١٩٩٣م.

٥-**الأساس في التفسير**، سعيد حوى،دار السلام،القاهرة، ط٥، ١٩٩٩م.

٦-**إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، د.ت.

٧-**بدائع التفسير لابن القيم**، جمع يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي.ط١، ١٩٩٢م.

٨-**البرهان في ترتيب سور القرآن** لأبي جعفر بن الزبير،تحقيق محمد شعباني، منشورات وزارة الأوقاف ،المغرب، ١٩٩٣م.

٩-**البرهان في علوم القرآن** لبدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،دار المعرفة، بيروت، د ت.

١٠- **تفسير التحرير والتنوير**، محمد طاهر بن عاشور،الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

١١- **التفسير الحديث**، محمد عزة دروزة، دار إحياء الكتب العربية، مصر،ط١ ،١٩٦٢م.

١٢- **تفسير القرطبي**:**الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبد الله القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت د.ت.

١٣- **التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب**،للفخر الرازي، دار الكتب العلمية،طهران،ط٢.

١٤- **تفسير المنار**، رشيد رضا، مكتبة القاهرة، ط٤، ١٣٧٣هـ.

١٥- **تناسق الدرر في تناسب السور**،للسيوطي،تحقيق عبدالقادر عطا،دار الكتب العلمية ١٩٨٦م.

١٦- **دراسات قرآنية**، محمد قطب، دار الشروق، مصر. ط ١٤١٤ ــ ١٩٩٣م.

١٧- **زاد المسير في علم التفسير**، أبو الفرج بن الجوزي، دار الفكر، د.ت.

١٨- **سنن الترمذي**، محمد بن عيسى الترمذي، دار الكتب العلمية، ط ١٩٩٢.

١٩- **صحيح مسلم**، الإمام مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٩٩٢م.

٢٠- **طبقات المفسرين**،لشمس الدين الداودي،تحقيق محمد علي عمر نشرمكتبة وهبة ط١.

٢١- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، ابن حجر العسقلاني،نشر دار الريان للتراث.

٢٢- **فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير**،للشوكاني،دار ابن كثير بدمشق.

٢٣- **فضائل القرآن ومعالمه وآدابه**، أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق أحمد الخياطي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط ١٤١٥ – ١٩٩٥م.

٢٤- **في ظلال القرآن**، سيد قطب، دار الشروق . ط٩، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م .

٢٥- **القرآن: نزوله،وتدوينه وترجمته وتأثيره** لـبلاشير،ترجمة رضا سعادة،ط دار الكتاب اللبناني، بيروت ط١، ١٩٧٤م.

٢٦- **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل**،عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني،دار القلم، دمشق، ط٢،١٩٨٩م.

٢٧- **لطائف الإشارات** للقشيري،تحقيق د. إبراهيم بسيوني،الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٨- **مباحث في التفسير الموضوعي**،د.مصطفى مسلم، دار القلم،دمشق،ط ١، ١٩٨٩م.

٢٩- **مدخل إلى القرآن الكريم**، لمحمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، د. ت .

٣٠- **مجموع الفتاوى** لابن تيمية . دار عالم الكتب، د .ت.

٣١- **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**،للبقاعي،تحقيق عبد السميع محمد أحمد حسنين. مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٩٨٧م.

٣٢- **مصنف ابن أبي شيبة**، أبو بكر بن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.

٣٣- **مصنف عبد الرزاق بن همام الصنعاني**، تحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي ط٢ ، ١٩٨٣م.

٣٤- **معجم الأدباء**،ياقوت الحموي، مؤسسة المعارف،بيروت، ط ١،١٩٩٩م.

٣٥- **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**،لأبي جعفر بن الزبير،تحقيق:سعد الفلاح،دار الغرب الإسلامي.ط ١، ١٩٨٣م.

٣٦- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني،دار الكتب العلميةط ١، ١٩٨٨م.

٣٧- الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي، دار الكتب العلمية د. ت.

٣٨- المتشابه اللفظي في القرآن ومسالك توجيهه عند ابن الزبير الغرناطي، رشيد الحمداوي ، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، ٢٠٠٣م.

٣٩- المسند، الإمام أحمد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت .

٤٠- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم،لأبي بكر بن العربي،تحقيق: د.عبد الكبير العلوي المدغري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ١٩٨٨م.

٤١- النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن،لمحمد عبد الله دراز،دار القلم،الكويت،ط٢، ١٩٧٠م.

٤٢- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، لمحمد الغزالي، دار الشروق ط ١٩٩٢م.

٤٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي،توزيع مكتبة ابن تيمية، ط١، ١٩٦٩م.

٤٤- الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، د. رفعت فوزي عبد المطلب، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م.

فهرس الموضوعات

الملخص ١٣٧

مقدمة.. ١٣٨

المبحث الأول:دلائل وحدة النسق القرآني... ١٤٠

المبحث الثاني : عناية العلماء بعلم المناسبات ١٥٣

المبحث الثالث : عناية العلماء المتقدمين بمقاصد السور.......................... ١٦٠

المبحث الرابع : جهود المعاصرين في الكشف عن مقاصد السور.......... ١٦٦

المبحث الخامس : فوائد وحدة النسق في تفسير السورة القرآنية............ ١٨٢

المبحث السادس : مسالك الكشف عن وحدة نسق السورة القرآنية... ١٩٤

الخاتمة.. ٢٠٥

لائحة المصادر والمراجع ٢٠٩